بين بدعية الطرق الصوفية
وضرورة السلوك إلى اللّٰه

أبو الفداء حسام بن مسعود
عفا الله عنه

بين بدعية الطرق الصوفية، وضرورة السلوك إلى الله

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، أما بعد، فمما يغفل عنه كثير ممن شرعوا في طلب العلم على طريقة أهل الحديث ويتهاونون فيه، وأنا منهم، نسأل الله الهداية والمغفرة، المران والعمل الجاد المنهجي على إصلاح القلب وتطهير الباطن. صحيح إن مجالس علمائنا حفظهم الله وأطال في أعمارهم لا تخلو من الموعظة ومما ترق به القلوب، ولكن لابد لطالب العلم من أنواع من العبادات التي ينتظم عليها لإصلاح قلبه وسريرته وتطهير نيته وتجديد دينه. وإذا كان ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، فلا شك أن تعلم ما به تتم تلك العبادات وترتاضها النفس ويحصل المقصود من ترويضها عليها، هو واجب كذلك.

فالمطلوب في هذا الباب، بارك الله فيكم، ليس أن يسمع الطالب موعظة بليغة يذرف منها دمعه، ويرق لها قلبه، ثم إذا قام من المجلس لم يفق من غفلة قلبه حتى يرجع إليه بعد أيام ويسمع موعظة جديدة، إن اتفق له ذلك، وما بين المجلسين لا تراه يحقق من الإخلاص إلا قليلا، يغلب عليه حظ نفسه في الطلب والدعوة من حيث يحسب أنه يحسن العمل! وهذه حال كثير من طلبة العلم السلفيين اليوم للأسف، بل لعلي لا أبالغ إن قلت إنها حال أكثرهم! تجده جادا مكبا على التحصيل والتعلم، يذاكر العلم مع أقرانه، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ما استطاع، ويدعو إلى الله بجد وحرص، يشتد على المخالفين حيث تحسن الشدة، ويترفق بهم حيث يحسن الترفق، ويطالع الكتب الشرعية بنهمة ويجرد المطولات، يصل في ذلك الليل بالنهار، لكن إذا نظرت إلى حظه من مراقبة نفسه ومراجعة نيته وإصلاح قلبه في جميع ذلك، لا تكاد تجد شيئا يذكر! والنادر كما يقولون لا حكم له. ولعله إذا وجد عالما يشرح كتابا في الرقائق أو في استصلاح القلوب، تقلل منه فاكتفى بمجلس أو مجلسين ثم انقطع ولم يواصل! ولعله تزين له نفسه ويزين له شيطانه الظن الباطن بأنه لا يحتاج إلى هذه الأمور، فهو طالب علم جاد مجد، شيخ داعية يشار إليه بحسن السمت والسيرة حيثما ذهب، لا يعلم الناس عنه إلا خيرا، فهو إذن صاحب ديانة قد حسن إسلامه! ألم يشهد له الناس بذلك؟ وهذا من أعظم التلبيس على النفس والتغرير بها، والله المستعان! فإن القضية هنا فيما يخفى على الناس لا فيما يظهر لهم! الشأن في النظر الباطن لا النظر إلى الهدي الظاهر والسمت الذي يراه الناس! الكلام على حال خفية باطنة لا يعرفها عنك أحد من الناس إلا أنت! ولأجل أن يأخذ الإنسان بأسباب علاج مرضه، فعليه أولا أن يعترف بأنه مريض سقيم، وبأنه مفتقر إلى ذلك العلاج!

وهذه هي الآفة في عامة أصحاب الأمراض النفسية، أنهم يستبعدون مجرد احتمالية أن يكون بهم مرض أو خلل يحتاج إلى علاج! أنا مريض نفسي؟ أنا عندي نقص عقلي يحتاج إلى علاج؟؟ هذا خلل تظهر علاماته في المصابين به، لكن لا تظهر علي أنا! هذا يصدق على غيري لا علي

أنا! نعم فلان وفلان فيهم وفيهم وفيهم، لكن أنا؟؟ أنا طالب علم سلفي أدعو إلى الله على بصيرة، وأنا من أشد الناس احترازا وتحذيرا من البدع وأهلها، تشمها وتشممهم أنفي من على بعد أميال كما يقال! وما دمت سلفيا على الجادة، أتحصل على الاعتقاد الصحيح في نفسي، وأقيم حوله من الموانع والحصون والحواجز ما يحفظه بإذن الله تعالى ويصونه من الانخرام أو التبدل، فمحال أن يكون فيّ من النقائص النفسية والأمراض القلبية ما يغرق فيه أهل الأهواء والبدع، أليس كذلك؟؟ وإذن فلي أن أنشغل بالعلم ومحاربة البدع ومكافحة أهل الأهواء وأوجه إليهم هم الخطاب بكشف الأهواء والأمراض القلبية التي عندهم، لأني أنا قد نجوت منها وسلمت وانتهى الأمر، والآن أريد أن أنقذ من حولي! هذا الذي حدثتكم به الآن، قطعا ليس هو كلاما صريحا يقوله أحدنا في وعيه الحاضر، في هذه المناسبة أو تلك، وإنما هو لسان الحال القلبي، ترجمان القلب، أو هو الظن الباطن الذي يتحرك في النفس دون تصريح ولا عبارة يطالها الوعي ويتنبه إليها!

فهل أرمي بهذا إلى تقرير أن طالب العلم السلفي قد يستوي في الحال الباطنة بصاحب الهوى الداعي إليه، الذي لا يبالي بارتكاب الباطل الجلي الظاهر، الذي تبين له بطلانه، لأجل أن يحفظ لنفسه منزلتها ومكانتها بين الأتباع والمريدين؟ للأسف، نعم، قد يقع له ذلك، ولا يأمنه أحدنا على نفسه أبدا ما دام حيا! يتصور في الإنسان أن يكون تابعا لهواه وشهوته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من غير أن يظهر منه ما يدل الناس على فساد طويته واختلاط نيته! وهذا من أخطر ما يكون، لأن الغفلة عنه تفتح الباب للميل إلى الباطل لا محالة ولو بعد حين. أنت الآن جئت إلى هذا المجلس على أثر محرك في نفسك، فهل تحققت فيه وتفحصته؟؟ كان السلف يمتنعون عن العمل حتى يحققوا النية! فإن عجزوا عن تجريد النية لله تعالى لم يقدموا عليه، ما كانت لهم الفسحة في تركه. لماذا تتجشم عناء أن تأتي إلى مجلس العلم وتسمع من شيخك وتدون الفوائد وتذاكر الكتب وتصبّر نفسك على ذلك؟ قد تظن أنك إنما تفعله لوجه الله خالصا، ولكن حقيقة الأمر أن هذا ليس بلازم! لا يلزم أن يكون الطالب المستقيم على السنة فيما يظهر للناس، الحريص على طلبها وتعلمها والدعوة إليها، متحققا في باطن نفسه بالإخلاص الواجب عليه، الذي هو من شروط صحة العمل وقبوله عند العرض على رب العالمين! من أفرط في ملاحظة ظاهر نفسه وغفل عن باطنها، فقد شابه اليهود، ومن أفرط في ملاحظة الباطن وأهمل الظاهر، فقد شابه النصارى! اليهود ما الذي أهلكهم؟ أنهم أخذوا بشريعة موسى عليه السلام، على كبر باطن لم يزل يتنامى في نفوسهم حتى صاروا يعاملون أنبياءهم معاملة الأنداد، بل يعاملون رب العالمين سبحانه وتعالى معاملة الند المكافئ للحبر الكبير من أحبارهم وعلمائهم! غرهم اختصاص الله تعالى لهم بحبل النبوة الموصول عبر الأجيال، فزينت لهم نفوسهم المريضة، التي فرطوا في معالجتها ومراقبتها أعظم ما يكون التفريط، زينت لهم أن يروا أنهم فوق البشر، وأنهم لا يحتاجون إلى ما يحتاج إليه غيرهم، وأن بينهم وبين الرب نسبا وبنوة، فلما كان النبي من أنبيائهم يأتيهم بالتكليف الإلهي، وكانوا قد ألفوا ذلك واعتادوه، هان عليهم أمره، وصاروا

يراجعون النبي ويطالبونه بمراجعة ربه! اذهب إلى ربك وقل له إن هذا لا نطيقه، وهذا لا يعجبنا، وهذا كذا وهذا كذا ((قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَداً مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ)) [المائدة : ٢٤]! فاستحقوا اللعنة والغضب الإلهيين مع أن الاستقامة الظاهرة على شريعة موسى عليه السلام كانت عند كثير من طوائفهم ولم تزل، بحيث يغبطهم عليها أهل الأمم! وأما النصارى فهلاكهم كان من عكس ذلك! أنهم تركوا الشريعة بالكلية، واكتفوا بما قذفته الشياطين في نفوسهم من دعاوى بشأن سبيل النجاة عند الرب جل شأنه، ومن تعظيم للمخلوقين ومن توجيه الخوف والرجاء إليهم من دون الله تعالى، فضلوا بذلك ضلالا بعيدا. والمسلمون وسط بين الطرفين.

فالحذر الحذر من الغفلة عن الباعث القلبي والنية وراء العمل. فإن أحدنا إذا فسد باطنه، فإنه لا يقع له ذلك جملة واحدة، أو على دفعة واحدة، وإنما تسبقه مقدمات خفية تحتاج إلى كشف وإلى تجرد فيما بين أحدنا وبين نفسه حتى يتبينها من نفسه! أنت لا يرى باطنك ممن سواك إلا الله عز وجل، ثم الشيطان من الجن الذي قد تسلطه عليك أعمالك الخفية من حيث لا تشعر، فيريه الله منك بعض ما تخفيه على الناس، ويستثمره استثمارا رجاء إهلاكك، نسأل الله العافية! فاستعذ بالله من أن يكون شيطان من الجن أبصر بما في نفسك منك، نسأل الله السلامة! قال تعالى: ((وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ)) [الزخرف : ٣٦] يعش أي يعرض، يبتعد! فهل المقصود هنا من الإعراض والابتعاد، ألا يجري على لسانك الذكر أبدا؟؟ لا والله! وإنما الإعراض والابتعاد المراد هنا هو ابتعاد القلب والجنان، وليس ابتعاد اللسان!

وكم من ذاكر لله تعالى ليس له من ذكره حظ ولا انتفاع إلا تحريك اللسان! وكم من مصلٍّ لا يحصد من صلاته إلا الجهد والتعب، سلمنا الله وإياكم! فأنت إن لم تتعلم الإحسان في الذكر وإحضار القلب فيه كما تتعلم الذكر، فما أقرب أن يتحول عملك إلى عادة لا تحصن صاحبها ولا تثمر له خيرا في الدينا ولا في الآخرة! متى كانت آخر مرة ذكر أحدكم ربه خاليا في نفسه ففاضت من الدمع عيناه؟؟ وكم مرة حصل لك ذلك فعلا منذ أن استقمت؟؟ متى كانت آخر مرة شعرت فعلا وأنت تذكر الله تعالى بأنك تعبد الله وكأنك تراه، وكأنك تذكره بين يديه سبحانه، وهو أمامك في ملكوته وعظمته التي لا يدركها العقل ولا يستوعبها الوصف؟؟ بل متى كانت آخر مرة حاولت، أخي طالب العلم، أن تتحقق بهذا المعنى فعلا في عبادة من عباداتك، الذكر أو غيره؟؟ متى كانت آخر مرة شعرت فيها بأن الله يراك ويسمعك، وأنت تخاصم مسلما أو تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر؟ أوَيَحضر ذلك المعنى في نفسي حتى وأنا أخاطب الناس وأخالطهم؟ نعم قطعا! قد كان يحضر لخير القرون! أليس قد قال عليه السلام في بيان الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه؟ فما هي الدعوة إلى الله وما هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إن لم يكن محض عبادة لله تعالى؟ فالمسألة هي كيف نشهد الله تعالى حال العبادة ونحن نشهد خلقه ونعاملهم، وليس كيف نشهده ونستحضر عظمته في قلوبنا في الخلوات وحدها! فإنك لا ينفك عنك اختلاط

حسي بمخلوقات الله تعالى أينما ذهبت، في خلطة أو في خلوة! لا ينفك ذلك عنك أبدا، ولا تخرج منه إلا خرجت من عقلك ثم من دينك نسأل الله السلامة! مهما فتحت عينيك ونظرت، فلن ترى إلا خلق الله أينما كنت! وإنما يسهل في الخلوات ما يصعب في الخلطة من تخلية النفس عما سوى الله تعالى، لمن يسر الله ذلك عليه، لأن الشواغل والموانع تتناقص وتتضاءل في الخلوات، لا أنها تنعدم بالكلية. وهذا هو نفس السبب الذي لأجله تسهل معصية الله تعالى في الخلوة كما لا تسهل في مخالطة الناس، فانتبه! لا سيما في عصر الإنترنت، تلك الفتنة التي ما تركت بيتا في أصقاع الأرض إلا دخلته! وقد تجد أحدهم يجترئ وهو جالس على لوحة المفاتيح في بيته أو على شاشة الهاتف الذكي، يجترئ حالئذ في القول والتقرير والكتابة على ما لا يجرؤ على معشاره لو أنه واجه الناس وخاطبهم بنفس تلك المعاني! لماذا؟ لأن القلب يكره أن يرى الناس منه كذا وكذا أو ألا يجدوا منه كذا وكذا، وهو يشعر بذلك عند مخالطتهم فوق ما يشعر به بمغيب عن أبصارهم. فإذا كان مطبوعا على هذا الميل فعلا، أن يراعي نظر الناس، وأن يعمل إذا عمل للناس وطلبا فيما عند الناس، وإن كان يظن نفسه مخلصا لله تعالى، فإن الخلوة تفضحه قطعا! تفضحه فيما بينه وبين ربه وفيما بينه وبين نفسه!

ولهذا لا ترى الملاحدة العرب ولا تعرفهم إلا على شبكة الإنترنت! لأنهم أجبن من أن يعرف المقربون منهم في بيوتهم وحيث يعملون وحيث يخالطون الناس، بأنهم ملاحدة كارهون للدين ناقمون عليه! فإن قيل ولكن التقية وإخفاء الإيمان اجتنابا للضرر المحقق المتيقن، مستحسنة ومشروعة للمسلمين في بعض الأحوال، ولا تصفونها بالجبن حالئذ، قيل في الجواب: الجبن صفة خبيثة مطلقا، لأنها تصدق في الذي يهاب ويجزع حيث يتعين عليه الإقدام، ولهذا قال بعض أهل اللغة الجبن هو الخوف مما لا ينبغي أن يُخاف منه. فليس كل خوف يكون جبنا، وليس كل تقية تكون مذمومة من أصحابها. والقصد أن الملاحدة إنما وصلوا لتلك النهاية لأنهم بلغوا الغاية والمنتهى في طلب ما عند الناس، وفي الحرص على تحصيل ما يحبونه من الأحوال الدنيوية العاجلة الزائلة، فصاروا يجترؤون في الخلوات على إظهار غاية ما يشتهون من خلع الدين وهدمه وامتهانه غاية الامتهان، كما لا يجرؤون على معشاره حيث يعرفهم الناس! وكما أن طمعهم في الناس، فخوفهم كذلك من الناس! وإنما يخافون من قوم بخلاف من يطمعون فيما عندهم! وهم عند الغاية مما يتصور من شتات القلب ولا عجب، إذ إن القلب إذا فقد التوحيد، وانقطع عنه حبل السماء، فإنه يهيم بصاحبه على وجهه، يتعلق بكل حقير وضيع من طينة الأرض وما عليها، مما يجده ذات اليمين وذات الشمال! فهؤلاء لو اتفق لهم أن فارقوا المسلمين وانخرطوا في مجتمع من أولئك الذين يطمعون فيما عندهم ممن لا يرفعون بالدين رأسا، فسترى منهم العجب العجاب في إظهار معاداة الدين وتسفيه أهله، علانية جهارا نهارا حيث يعرفهم الناس بذلك، لأنهم إذن يعلمون أن المجتمع المحيط والمقربين إليهم يحمدونهم بهذا ولا يبطشون بهم! فمنتهى الرجاء والطمع في الناس وفيما عندهم، ومنتهى الخوف منهم ومن بطشهم، إنما يجتمع في الملحد الزنديق المنافق الذي يكتم إلحاده! وهذا نبهت عليه كثيرا في غير موضع عند

الكلام في نفوس الملاحدة وما يحملهم على الإلحاد وما ينبغي أن يراعى عند التعرض لهم، وليس هنا محل الكلام عليه. وإنما أردت في هذا المقام أن أنبه طالب العلم السلفي، الذي لأجله أعددت هذه المحاضرة، إلى خطورة الغفلة عن النفس وعن أحوال القلب، وخطورة التفريط فيما يجب عليه تعلمه من علوم السلوك وتطهير القلوب، وإلزام النفس بالعمل بها، كما يتعلم أبواب الاعتقاد وعمل الجوارح، وعلوم الآلة، ويعمل بها. فإن منتهى هذا المنحدر القلبي الذي يغفل عنه كثير من الناس، ممن سلكوا سبيل الاستقامة والتدين وطلب العلم، ليس الخروج من سبيل المؤمنين ومفارقة أهل الحديث والانقلاب عليهم وحسب، وإنما منتهاه الخروج من ملة الإسلام بالكلية، والثورة على مبدأ التدين والخضوع لرب العالمين بالكلية! وإنما يزول الرجل عن السنة إلى ما يخالفها بحسب ما يتفق له أن يميل إليه بقلبه مما عند الناس! وهو ما يمكن تسميته بمتعلق الهوى. أنت ربما تعلق هواك الآن بالانخراط في طلب العلم والتوسع فيه، وبمنابزة أهل البدع ومفاصلتهم، لكن ما يأمنك ألا ينقلب هذا المتعلق يوما ما إلى خلافه، فيصبح ما تحبه الآن مبغضا إليك غدا؟؟ العبد لا يأمن على نفسه ذلك أبدا مهما أحسن العمل ومهما راقب الله في يومه وليلته وفي جميع أحواله، ولكنه إذا كان غافلا مقيما على غفلته، فإنه يخشى ذلك عليه فوق ما يخشى على من انتبه واحترز لدينه. ذلك أن الذي يترك لنفسه حبلها على غاربها كما يقال، يترك لها قياد أمره، فإنها تميل برأيه ونظره وعلمه وسلوكه ظاهرا وباطنا إلى تحصيل ما تشتهيه هي وما تحبه واجتناب ما تكرهه، كيفما اتفق له أن يكون. فإذا تبدل موضع الحب وموضع البغض في باطن نفسه، وتحول متعلق الهوى إلى جهة غير الجهة، فإن الاعتقاد والرأي والدين يتبدل، نسأل الله السلامة والعافية! فلا تأمن لنفسك أبدا، ولا تفرح بأن هواها اليوم أن تأتي بك إلى مجالس العلماء وإلى حلق العلم والذكر، فإن قوما كان هذا هواهم في أول أمرهم، فرطوا في تطهير نفوسهم ومراقبتها ومجاهدتها كما هو حقها أن تجاهد وتقوم، فصاروا إلى ما الله به عليم من الضلال والزيغ البعيد، سلمنا الله وإياكم! قادتهم أولا إلى طلب الخير فانقادوا، وقادتهم ثانيا إلى طلب الشر فتابعوها! فإن لم تحمل نفسك على الحق حملا، وقد ارتضيته لنفسك دينا، إن لم تجاهد على ذلك ليل نهار أعظم ما يكون الجهاد، فلا تلومن إلا نفسك إن دخل عليك الزيغ يوما ما.

فالأمر ليس بالهين يا إخوان! ما أحدّثكم فيه الآن، إذا غفل أحدنا عن مقدامته في نفسه، فلربما لم يفق إلا وقد أغرقه قلبه في الميل عن الدين والتدين بالكلية، سلمنا الله وإياكم والمسلمين! الله أعز من أن يقبل الشركة في قلب أحدنا! ضعوا هذا نصب أعينكم! واعلموا أن الشركة دركات وطبقات ومنازل، تجر إحداها إلى ما بعدها، بما ينسحب على القلب في غفلة من صاحبه، لأن النفس وإن كانت تعقل فساد الغفلة، إلا أنها تشتهي ما يترتب عليها وتلتذ به إجمالا، نسأل الله العافية! فإذا ترسلت النفس مع تلك الملذات الباطنة، تردت في تلك الطبقات الردية خطوة بعد خطوة، وإذا ببساط العبودية لله تعالى ينسحب من تحت قدم المرء من حيث لا يشعر ولا ينتبه، بل ومن حيث يراه أحسن الناس دينا وأكملهم عبادة وعملا! ولهذا قال النبي عليه السلام "إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر. قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: الرياء" لماذا هو أخوف

ما يخافه علينا عليه السلام؟ لأنه مع كونه يحبط العمل، فإنه يخفى على المتلبس به، من غفلته عن قلبه وعن حال نفسه وعن نياته وبواعثه على العمل. ولأنها حال باطنة، فقد لا يجد من ينبهه إلى تلبسه بها، لأن الناس لا ترى إلا الهدي الظاهر!

فصاحب تلك الغفلة لا يأمن على نفسه من أن تجره إلى ما فوق ذلك، من حيث لا يشعر هو ولا غيره، سلمنا الله وإياكم، حتى يصل إلى حال توجب عند الله تعالى فضحه وهتك الستر عنه، نسأل الله السلامة. فخفاء ذلك المرض الباطن، وهو شرك في العمل، هو ما يجعله عظيم الخطر، بل أعظم المخاطر على المؤمن وأعظم ما يُخاف منه، لأنه ينمو في غفلة من صاحبه، ولا يشعر من حوله به غالبا حتى يتعاظم الداء ويبلغ أن يظهر أثره على العمل الظاهر والسمت الظاهر، وأن يعجز صاحبه عن التستر به، فيفضحه ما يقع في كلامه من اللحن الكاشف للهوى والميل الفاسد، كما في قوله جل شأنه ((ولتعرفنهم في لحن القول)). ولهذا كان الصاحبة أشد الناس خوفا من النفاق، لأنه ينمو إلى النفس حال الغفلة، ويتعاظم فيها في حال الغفلة. وحال الغفلة تعرض على كل إنسان، لا محالة، ولكن الخطر كل الخطر من الترسل فيها والبقاء عليها والركون إليها. وهذا أمر يحتاج إلى مران وجهاد ومداومة ورياضة، لا تزل القدم بعد ثبوتها، سلمنا الله وإياكم، إلا من التقصير والتفريط فيها.

والمرؤ يعجب حقا كيف يسمع أناس هذا الحديث، ثم يعارضونه من حيث لا يشعرون ولا ينتبهون، بقوله عليه السلام "إِنَّ الشَّيْطانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ المُصَلُّونَ في جَزِيرَةِ العَرَبِ، ولَكِنْ في التَّحْرِيشِ بيْنَهُمْ"! كيف يعارضونه؟ يقولون إن المسلمين لا يخشى عليهم الشرك الأكبر وإنما يخاف عليهم من الشرك الخفي، الشرك الأصغر! فهل خاف النبي عليه السلام علينا من الشرك الأصغر، إلا لأنه بريد للشرك الأكبر، ويهدد خفاؤه العبد بالوقوع فيما فوقه من حيث لا ينتبه؟؟ الذي صار ديدنه أنه غافل عن تحري الإخلاص في عمله، فصار يراقب الناس ويتحراهم بالرغبة والرهبة من حيث لا ينتبه، وهو يظن أنه على خير وصلاح، لأن متعلق هواه ورغبته ورهبته قد اتفق له الآن أن كان في أهل الخير والصلاح، يرغب في عاجل زائل مما عندهم ويخاف من فواته، هذا ما يأمنه أن يصبح وقد مالت به شهوته إلى محبة ما عند غير هؤلاء والرغبة فيه والحرص على تحصيله، حتى يصل إلى تسويغ الشرك والتساهل فيه بعد أن كان من أشد الناس تحذيرا منه وتنفيرا من أهله، نسأل الله السلامة؟؟ الأمثلة على أناس قد وقع لهم ذلك، فيمن يعرفون اليوم بالحنابلة الجدد وغيرهم، حاضرة في الذهن، ولولوا ضيق المقام لحدثتكم عنها. أناس كانوا يبغضون القبوريين والطرقية ويطلبون العلم تحت شعار السلفية، يعظمون علماء السنة ولا يجاوزونهم في العقيدة والمنهج إلى غيرهم، لا لأنهم أرادوا النجاة والسلامة في الآخرة حقا كما صورت لهم أوهامهم في أول الطلب، وإنما لأنهم لمسوا النبوغ والذكاء في أنفسهم، فأحبوا أن يتصدروا بالعلم والفتوى والتدريس بين المقربين إليهم من سالكي تلك الطرق، فلما اتفق لهم حينها أن كان أولئك المقربون هم فئة ممن ينتسبون إلى السلفية، تعلق الهوى بهم،

فتوطنت النفس على التدرج في الطلب على طريقتهم ومنهجهم، وعلى موافقتهم في الولاء والبراء، وفي تقريبهم من يقربون وإبعادهم من يبعدون، ثم لما اصطدموا ببعض هؤلاء، وشعروا بأنهم لن يجدوا عندهم من التقدم بالعلم والرياسة به ما كان هو طمعَهم ومحركَهم الخفي وباعثَهم على الطلب، زينت لهم نفوسهم غمط أولئك الأقران والتعالي عليهم بكثرة التحصيل والقراءة وهذه الأمور، ومن ثم صار التعمق في كتب المتأخرين من فقهاء المذهب الحنبلي بابا لتحقيرهم وتسفيه أحلامهم، ومن ثم انفتح الباب لمتابعة المخالفين من متأخري الحنابلة في العقيدة، وتحول القلب من أن يبغض الشرك وعبادة المقبورين، وأن ينفر من أصحاب ذلك ومن أحوالهم، إلى أن يميل إليهم ويتهاون فيما هم عليه، بدعوى أن عند هؤلاء من العلم ما ليس عند الآخرين، نسأل الله السلامة! فمثل هذا إنما أردته غفلته العميقة عن باطن نفسه وعما كان ولم يزل يحركه في جميع أمره، منذ أن شرع في طلب العلم وإلى اليوم.

ولهذا نقول إن الإحسان منه قدر واجب لا يسع المسلم جهله ولا التفريط في أسباب تحقيقه في نفسه، لأن التفريط فيه يغرق المرؤ في غفلته، فيفتح الباب للزيغ والضياع، نسأل الله السلامة. التفريط في هذا القدر الواجب، يجعل المرء عبدا لهواه من حيث يحسب أنه قد عبد نفسه وهواها لله.

وليس المقصود بتعلم الإحسان أن يتعلم المرؤ الفناء التام عن نفسه وعن المخلوقات وعن كل غرض دنيوي، كما يصنعه غلاة الصوفية، فإن هذا يبلغ صاحبه أن يكون ذاهب العقل والدين جميعا، وليس أنه يتحقق بالحقيقة المطلقة كما يدعون! قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوى:

[الفناء] الذي يوجد في كلام الصوفية يفسر بثلاثة أمور: أحدها: فناء القلب عن إرادة ما سوى الرب، والتوكل عليه وعبادته، وما يتبع ذلك، فهذا حق صحيح وهو محض التوحيد والإخلاص، وهو في الحقيقة عبادة القلب، وتوكله، واستعانته، وتألهه وإنابته، وتوجهه إلى الله وحده لا شريك له، وما يتبع ذلك من المعارف والأحوال. وليس لأحد خروج عن هذا." قلت: فهذا هو القدر الواجب على كل مسلم، وبه يحصل الإحسان تحت الإيمان، ويصبح المرؤ كأنما يعبد الله تعالى وهو يراه. يقول الشيخ: "وهذا هو القلب السليم الذي قال الله فيه: {إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [الشعراء: ٨٩] وهو سلامة القلب عن الاعتقادات الفاسدة، والإرادات الفاسدة، وما يتبع ذلك." ثم يقول، وانتبه: "وهذا [الفناء] لا ينافيه البقاء، بل يجتمع هو والبقاء فيكون العبد فانياً عن إرادة ما سواه، وإن كان شاعراً بالله وبالسوى، وترجمته قول: لا إله إلا الله، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول "لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة، وله الفضل، وله الثناء الحسن" وهذا في الجملة هو أول الدين وآخره." انظر يقول: يفنى عن إرادة ما سوى الله، ولكن مع هذا يكون شاعرا بالله تعالى وبما سواه. لا ينقطع عن شهود المخلوقات، وإنما يكون المقصود بتوحيد الشهود إذن مصرف الإرادة وجهتها في قلبه، أنها إنما تتوجه إلى من في السماء وحده سبحانه،

لا إلى شيء مما دونه، مما لا ينقطع عن مخالطته ومشاهدته كما هو شأن كل مخلوق، وكما لا خروج للمخلوق السوي العاقل منه أصلا. لا يخرج الإنسان عن أن يكون شاعرا بما حوله من الموجودات المحسوسة إلا من مرض يعتريه، يفسد به عقله، وهذا مما خالف فيه غلاة الصوفية خلافا مفسدا للعقل والدين معا، وفتحوا به بابا لتسلط الشيطاين عليهم كما تسلطت على أصحاب الملل الوثنية الشرقية من قبل، فيما يسمى بوحدة الوجود. لا يتحد الإنسان بالذات العلية بزعمهم إلا بأن يصل في خلوته إلى حال ينقطع معها شعوره فعلا بجميع ما حوله، فيصبح وقد شعر باتحاده مع الأزلي الأبدي، وبأنه قد سمى فوق كل موجود! هذا الشعور من صنع شيطان يتسلط على أصحاب المسالك المعوجة المخالفة لهدي الأنبياء، الذين سبق إليهم الاعتقاد بأن هذا ممكن، وأنه مما يوصل إليه بمران النفس وتدريبها وبطول جهاد ومعالجة! أن يصل إلى ماذا؟ إلى أن يسقط حجب الموجودات عن حسه وشعوره، فتنكشف له الحقيقة المطلقة المزعومة، وهي أنه لا موجود في الحقيقة إلا الله! فهذا مما يجب الانتباه إليه والاحتراز منه، ولكنه احتراز لا ينبغي أن يمنع أو يصد طالب العلم من أهل الحديث والسنة عن أن يدرب نفسه على القدر المشروع مما يشار إليه في مصطلحات القوم بوحدة الشهود، فأنت تحتاج إلى أن تتعلم وأن تدرب نفسك دربة طويلة على أن تشهد الله تعالى بإرادة قلبك، وأن تصبح وقد قصدته في كل عمل لا تقصد سواه.

يقول الشيخ: "الأمر الثاني: فناء القلب عن شهود ما سوى الرب، فذاك فناء عن الإرادة، وهذا فناء عن الشهادة، ذاك فناء عن عبادة الغير والتوكل عليه، وهذا فناء عن العلم بالغير والنظر إليه، فهذا الفناء فيه نقص، فإن شهود الحقائق على ما هي عليه، وهو شهود الرب مدبراً العبادة، آمراً بشرائعه، أكمل من شهود وجوده، أو صفة من صفاته، أو اسم من أسمائه، والفناء بذلك عن شهود ما سوى ذلك."

قلت: وهذا هو الفرقان بين شهود السلف وشهود الخلف، وبين فناء السلف وفناء الخلف. العابد الزاهد السلفي لا يفنى ولا يزول أبدا عن الحس والشعور بما سوى الله تعالى بمعنى أنه يبلغ ألا يرى في الوجود غيره، ولا تدرك حواسه شيئا مما سوى الله، وإنما يفنى عن شهود نفسه والناس بمعنى أن يزول عن إرادة الأسباب والتوكل عليها من دونه جل في علاه! فإن الحواس مدركة لما حولها لا محالة، ما دامت آلتها تعمل كما خلقها الله تعالى، ما لم يفقد الرجل وعيه ويدخل في الغيبوبة أو ما شاكل ذلك، فيفقد الحس والشعور الفعلي بما حوله تحقيقا! فهذه الحال التي يمتدحون من يزعمونها لأنفسهم أو يزعمها الناس لهم، هؤلاء يمدحونهم بنقص بين، لا بكمال يجاوزون به عامة الناس. اللهم إلا إذا كان تحت ذلك اعتقاد غيبي وثني بوحدة الوجود، وبأنه لا موجود بحق إلا الله تعالى، فإنه حينئذ يصبح تأويل كل ما يدخل إلى الحس، وهو داخل لا محالة كما ذكرنا، أنما هو الله وحده، الذي ليس في الوجود شيء سواه! وربما لعبت الشياطين في أحوال هؤلاء الباطنة فجعلتهم يرون المدركات الحسية على غير ما هي عليه من الهيئة والصورة، وبعضهم يستعين لذلك المطلب بالحشيشة وما شاكلها، طلبا في الانفكاك من الدرك الحسي الذي

تمليه آلة الحس السوية على كل عقل وقلب! يريد أن يفتح عينيه فلا يرى إلا ما يشتهي أن يراه، وهو ما يزعم بعدئذ أنه كان شهودا لله تعالى عيانا على الحقيقة، بعد انخلاع وانفكاك تام من حجب وأستار الوهم الذي هو موجودات العالم، كما كان يقوله ابن عربي وغيره. فهذه الحال، حال الانفكاك التام عن الشعور بالأشياء من حولنا، إن لم تكن من خلل وعطب في آلة الحس، أو تعطيل مفسد لها، بمذهبات العقل من المواد المخدرة وما شاكلها، فإنما تكون من لعب الشيطان وتلاعبه بالقوم، ولا يصل إليها إلا من سبق منه اعتقاد أن منتهى السلم الصوفي هو الوصول إلى درك وحدة الوجود ومشاهدتها بعين النفس إن لم يكن بالعين الباصرة! فالذي يروم الفناء في مسيره إلى الله تعالى بهذا المعنى الوثني الفاسد، فلا يفني في الله تعالى في الحقيقة كما يتوهم، وإنما يتلبس به شيطان يلبس عليه دينه. وهذا قريب الوقوع عند الصوفية جدا، حتى إن من أكابرهم الأقدمين كعبد القادر الجيلاني رحمه الله، قد حذرهم من ذلك ونبههم إلى أن الشيطان يستثمر جهل الجاهلين منهم ويوقعهم في الشرك والزندقة وفي عبادته من دون الله تعالى، ولا يسلم منه إلا من كان لديه من العلم ما يميز به بين الشرك والتوحيد، وبين ما يجوز في حق الله تعالى وما يمتنع، كما دل عليه السمع الصحيح والعقل الصريح. فالغفلة عن الله تعالى ليس علاجها بقطع الحس والإدراك مطلقا عن جميع ما سواه! وإنما علاجها بحمل النفس حملا على القصد والإرادة إلى ما وراء المخلوقات، وإلى من خلق الناس وما معهم وما عندهم مما تميل إليه القلوب الغافلة.

يقول الشيخ: "ولهذا كان الصحابة أكمل شهوداً من أن يُنقِصَهم شهود للحق مجملاً عن شهوده مفصلاً، ولكن عرض كثير من هذا لكثير من المتأخرين من هذه الأمة." أي أن ما دخل على أصحاب الأحوال من الصوفية المتأخرين (والمتأخرين هنا بمعنى من تأخروا عن قرن الصحابة والتابعين وتابعيهم) من زوال النفس عن شهود مفصل للموجودات وللمفعولات الإلهية، هذا نقص لم يكن للصحابة رضي الله عنهم، مع كونهم أحسن الناس دينا بعد النبي عليه السلام، وخيرة هذه الأمة. يقول: "كما عرض لهم عند تجلي بعض الحقائق؛ الموت والغَشي والصياح والاضطراب، وذلك لضعف القلب عن شهود الحقائق على ما هي عليه، وعن شهود التفرقة في الجمع، والكثرة في الوحدة،" أي أن المتأخرين دخل عليهم من السعي في تخلية النفس من عوارض الإحسان والإخلاص وشهود الباري على المعنى الصحيح، ما أوقعهم في أحوال لم تعرض للأولين من هذه الأمة، بسبب ضعف قلوبهم عن مشاهدة التفرقة في الجمع والكثرة في الوحدة. وهذه الكلمة من أنفس ما حرره الشيخ رحمه الله في بيان هذا الخلل المسلكي العظيم. أن النفس يجب أن يكون فيها من القوة في الحق ما يعصمها من أن ينتفي عندها العلم بالافتراق مع الشعور بالجمع، أو أن ينتفي عندها العلم بالكثرة عند الشعور بالوحدة! فكل ما يفترق من الموجودات من حولنا ويتعدد، فهو مفترق حقا، متعدد حقا، لكن حقيقة الأمر أنه كله، مع ذلك، راجع في الخلق والتدبير والإيجاد والإمساك عن الزوال، إلى واحد أحد فرد صمد، بيده مقاليد كل شيء، سبحانه. فالذي يجمع ما تفرق من المحسوسات إنما هو العلم بخضوع تلك الكثرة المحسوسة لإرادة الواحد

سبحانه وخلقه وتدبيره خضوعا دائما لا يتعطل أبدا طرفة عين، والذي يريد أن يستشعر تلك الوحدة العليا والجمع الرباني عند التدبر في حال العالم، يجب أن يكون محصنا بالعلم الجازم بأن الواحد سبحانه لا يتعدد في وجوده، كما أن المتعددات الكثيرة من مخلوقاته لا تتحد في وجودها، لأن الشياطين تجتال كثيرا من أصحاب القلوب الرقيقة فتذيب ذلك الفارق فيها بين الخالق والمخلوق، وبين الواحد والمتعدد، وتوقعهم فيما لا تحمد عقباه، ولا يحمدون به أصلا.

يقول الشيخ: "حتى اختلفوا في إمكان ذلك، وكثير منهم يرى أنه لا يمكن سوى ذلك لما رأى أنه إذا ذكر الخلق أو الأمر اشتُغل عن الخالق الآمر. وإذا عورض بالنبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه ادعى الاختصاص، أو أعرض عن الجواب أو تحير في الأمر." أي رأوا أنه لا يمكن إلا أن يحمل نفسه حملا على ألا يرى ولا يشعر إلا بالله تحقيقا، ويتخلى عن درك كل ما سواه، لأنه رأى، من ضعف في نفسه لم يسلك الطريق الصحيحة لإصلاحه كما سلكها السلف، رأى أنه إذا ذكر المخلوق والسبب المخلوق، وما يجري في العالم من ذلك، اشتغل به عن الخالق سبحانه. فإذا قيل له ولكن النبي عليه السلام كان لا يزول عن مخالطة الناس وكان كما قال عليه السلام: أما وإني أتقاكم الله تعالى وأخوفكم له، ولكني أصوم وأفطر وأقوم وأنام، وأتزوج النساء، قالوا لعل ذلك من خصوصياته عليه السلام، أن قلبه قد جُعل فيه من القوة الجبلية ما به يخالط المخلوقات وأحوالهم ومع هذا لا يشغله ذلك عن شهود الخالق سبحانه! ولعله يتحير أو لا يدري بم يجيب عن هذا الإيراد. وهذا الجواب فاسد، لأن الله تعالى لم يخلق الناس ليكلفهم بما لا يطيقون، أو بما إن تكلفوه اعتزلوا ما لا يسعهم الاستغناء عنه من مطالب الدنيا من مأكل ومشرب ومنكح وأسباب ذلك. فمحال أن يكون الشهود والفناء السلفيان اللذان أثر معناهما عن السلف إجمالا، بحيث لا يتحقق العبد بهما إلا بهذا النقص والخلل العقلي البين. فما سبب ظنهم هذا؟ يقول الشيخ معللا ومفسرا: "وسبب ذلك أنه (أي صاحب هذا الجواب) قاس جميع الخلق على ما وجده من نفسه؛ ولهذا يقول بعض هؤلاء: إنه لا يمكن حين تجلى الحق سماع كلامه" قلت وأحوال هؤلاء أكثرها شيطانية كما مر، لأنهم قد قبلوا بالفعل فكرة أن يكون التجلي بمعنى أن يزول جميع ما في الوجود عن حس أحدهم إلا الواحد سبحانه. فمن تحقق بهذا الاعتقاد الوثني وسبق إلى نفسه فعلا، فهذا من يسهل على شياطين الجن أن تستدرجه إلى حمأة الوثنيين من أهل الملل، فيظن أن حصول الفناء بدون تلك الحالة التي وقعت له ممتنع! فالشهود عنده ليس بمعنى استشعار القلب بوحدة الخالق المدبر الآمر الناهي الذي بيده ومنه وإليه كل سبب مخلوق، وإنما هو بمعنى ألا يدرك الحس موجودا سواه! تنكشف الحجب والأستار ولا يرى غيره عيانا! وهذا لا يقوله إلا أصحاب وحدة الوجود والتصوف الفلسفي الفاسد الذي فشا في المتأخرين منهم، من أثر مخالطتهم لأهل الملل الوثنية الشرقية.

يقول الشيخ: "ويحكى عن ابن عربي أنه لما ذكر له عن الشيخ شهاب الدين السهروردي أنه جوز اجتماع الأمرين. قال: نحن نقول له عن شهود الذات وهو يخبرنا عن شهود الصفات،

والصواب مع شهاب الدين. فإنه كان صحيح الاعتقاد في امتياز الرب عن العبد." قلت فسبب الميل عن شهود الصفات، الذي هو كما تقدم الشعور القلبي الحاضر بنفاذ الإرادة الإلهية والخلق الإلهي والتدبير الإلهي في كل موجدود، إلى ادعاء شهود الذات الإلهية، إنما هو فساد الاعتقاد في مسألة امتياز الرب عن مخلوقاته، وهو ما دخل عليهم من الاختلاط بالوثنيين كما ندعي. يقول الشيخ: "وإنما بنى ابن عربي على أصله الكفري في أن الحق هو الوجود الفائض على الممكنات، ومعلوم أن شهود هذا لا يقع فيه خطاب، وإنما الخطاب في مقام العقل. " قلت أي لا يأتي الخطاب الشرعي بتكليف الناس بتلك المشاهدة، لأنها غير ممكنة أصلا! محال أن يكلف الله تعالى الناس بأن يروا باطلا لا حقيقة له، وهو أنه لا موجود في الحقيقة غيره، وجميع ما سواه وهم وسراب! بل إن الله عز وجل لم يرد في السمع تكليفه العباد بأن يأخذوا بأسباب مشاهدة ذاته أصلا، أو بانكشاف أستار الغيب عنها، حتى مع بقاء الحس بما سواه جل في علاه! وإنما جاء بتكليف العباد بأن يروضوا عقولهم وقلوبهم على أن تعبده وكأنما تراه! كأنما هذه، حال متعلقة بالعقل لا بالسمع والبصر. يقول الشيخ: "وفي هذا الفناء قد يقول: أنا الحق، أو سبحاني، أو ما في الجبة إلا الله، إذا فنى بمشهوده عن شهوده، وبموجوده عن وجوده، وبمذكوره عن ذكره، وبمعروفه عن عرفانه." قلت هذه كلها من مصطلحات الصوفية في الفناء البدعي هذا، أن يزول الإنسان عن الشعور بكل حقيقة وبكل معنى وبكل وجود وذكر ومعرفة إلا أنه يشعر بالذات الإلهية المجردة بزعمه! يقول الشيخ: "كما يحكون أن رجلاً كان مستغرقاً في محبة آخر، فوقع المحبوب في اليم فألقى الآخر نفسه خلفه، فقال ما الذي أوقعك خلفي؟ فقال: غبت بك عني فظننت أنك أني. وفي مثل هذا المقام يقع السكر الذي يسقط التمييز مع وجود حلاوة الإيمان، كما يحصل بسكر الخمر، وسكر عشيق الصور. وكذلك قد يحصل الفناء بحال خوف أو رجاء، كما يحصل بحال حب فيغيب القلب عن شهود بعض الحقائق ويصدر منه قول أو عمل من جنس أمور السكارى وهي شطحات بعض المشائخ، كقول بعضهم: أنصب خيمتي على جهنم، ونحو ذلك من الأقوال والأعمال المخالفة للشرع، وقد يكون صاحبها غير مأثوم، وإن لم يكن فيشبه هذا الباب أمر خفراء العدو ومن يعين كافراً أو ظالماً بحال ويزعم أنه مغلوب عليه."

قلت: أي يجوز أن تقع تلك الأحوال لبعض من لا يعتقدون أنه ليس في الوجود إلا الله، ولا يقولون بوحدة والوجود وهذه الأمور، ولكن لأن محبتهم لم تضبط بعلم، وقعوا في مخالفة الشرع من حيث لا يشعرون بأنهم قد خالفوه. وهذا الباب قد توسع فيه الصوفية غاية التوسع، فالتمسوا المعاذير لأناس قرروا الزندقة واعتقدوها، بدعوى أن عقولهم قد غابت في أحوال السكر بمحبة الله تعالى، فقالوا ما قالوا وهم لا يقصدون الكفر! فيقال فكيف بهم إذا أفاقوا وميزوا وزالت السكرة؟؟ ألا ينتبهون إلى كفر ما قالوا ونقله الناس عنهم فيتوبون منه؟ أليس قد وجب عليهم أن يتنبهوا إلى شدة مصادمة ما يقولون للقرآن، فيحملهم عرفانهم بالله وحقه على التوبة من ذلك والتبرؤ منه؟؟ ألا ينبههم الناس بعدما يفيقون؟؟ فإن قدرناها سكرة لا خروج منها، فهي مما يذمون به ولا يحمدون عليه، لأنه بذلك يكون قد تم لهم من ذهاب العقل ما يؤسف له عليهم وإن

كان مانعا من تكفيرهم أو تفسيقهم! والذي يكون في حالة سكر عارضة، لا يكتب كتبا ولا يقرض أشعارا يرويها على الناس، تنضح بالكفر ووحدة الوجود كما وقع من ابن عربي وأمثاله، وهذا واضح!

يقول الشيخ: "ويحكم على هؤلاء أن أحدهم إذا زال عقله بسبب غير محرم فلا جناح عليهم فيما يصدر عنهم من الأقوال والأفعال المحرمة بخلاف ما إذا كان سبب زوال العقل والغلبة أمراً محرماً. وهذا كما قلنا في عقلاء المجانين والمولهين، الذين صار ذلك لهم مقاماً دائماً، كما أنه يعرض لهؤلاء في بعض الأوقات، كما قال بعض العلماء ذلك فيمن زال عقله حتى ترك شيئاً من الواجبات: إن كان زواله بسبب غير محرم مثل الإغماء بالمرض أو أسقى مكرها شيئاً يزيل عقله فلا إثم عليه، وإن زال بشرب الخمر ونحو ذلك من الأحوال المحرمة أثم بترك الواجب، وكذلك الأمر في فعل المحرم. وكما أنه لا جناح عليهم فلا يجوز الاقتداء بهم ولا حمل كلامهم وفعالهم على الصحة بل هم في الخاصة مثل الغافل والمجنون في التكاليف الظاهرة، وقال فيهم بعض العلماء: هؤلاء قوم أعطاهم الله عقولاً وأحوالاً فسلب عقولهم وترك أحوالهم وأسقط ما فرض بما سلب." قلت فلإن صح أن ذهب عقل أحدهم حتى بقي على تلك الحال المسلوبة الناقصة، فلا يحمدون عليها ولا يقتدى بهم فيها، ولا يقال إن هذا هو كمال العرفان وبلوغ الغاية في طبقات التصوف والسلوك إلى الله كما يقوله هؤلاء، وكما يتبركون بالمجاذيب والمخابيل من أجله! فإن هذا يقتضي ذم الرب جل وعلا وسبه سبحانه وتعالى علوا كبيرا! كيف لا يكمل المرؤ في الاتصاف بموجبات محبته والولاية الخاصة له جل في علاه إلا بأن يذهب عقله الذي به كرمه ربه وبه كلفه بالدين من أصل الأمر، وذم المشركين في مواضع شتى في كتابه بأنهم يخالفون مقتضاه ولا يعقلون؟ نعوذ بالله من ظن كهذا في رب العالمين سبحانه.

يقول الشيخ: "ولهذا اتفق العارفون على أن حال البقاء أفضل من ذلك (يعني من فنائهم المزعوم الذي يزول بعقل صاحبه)، وهو شهود الحقائق بإشهاد الحق،" أي أن الأفضل والأكمل للعبد أن يحصل له الشعور بوجود الموجودات وبفعل الله تعالى بها، بإشعار الله تعالى للعبد بذلك، وإلا فذهاب العقل شين وعيب لا ريب فيه. يقول الشيخ: "كما قال الله تعالى فيما روى عنه رسوله "ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه. فبي يسمع وبي يبصر، وبي يبطش وبي يمشي" وفي رواية: "وبي ينطق، وبي يعقل". فإذا سمع بالحق ورأى به سمع الأمر على ما هو عليه وشهد الحق على ما هو عليه." أي أن الأعرف بالله يكون أكمل عقلا والأقرب إليه يكون أكمل إدراكا وحسا، وليس العكس! ثم يقول رحمه الله: "الثالث: فناء عن وجود السوى: بمعنى أنه يرى أن الله هو الوجود، وأنه لا وجود لسواه، لا به ولا بغيره" قلت الفرق بين هذا النوع والذي قبله أن المتلبس بهذا النوع يصرح بأنه ليس في الوجود إلا الله، بينما النوع الذي قبله لا يكون فيه تصريح لا موجود

إلا الله، وإنما يقتضي مسلكهم ألا يكون في الوجود إلا الله، وتكون هذه هي النهاية التي يصلون إليها غالبا، فانتبه. فأنت عندما تقول إن كمال العبادة في ألا ترى في الوجود غير الله، فإنه يصبح اعتقاد أن في الوجود فعلا ما سوى الله، مقتضيا اتهامه سبحانه بالعبث، إذ يخلق ما لا يمكن للعبد أن يعبده كما هو حقه أن يعبد إلا بأن يخرج من كل حس وشعور بوجود ذلك السوى! ولهذا كثير ممن يقولون بالمعنى السابق الذي هو إسقاط الشعور بالسوى وتعطيل النفس عنه بالكلية، ينتهي أمرهم إلى اعتقاد أن السوى هذا ليس إلا سرابا ووهما لا حقيقة له في الخارج، فيؤول حالهم إلى التصريح بوحدة الوجود. ولهذا قلت أن أغلب من يتلبسون بهذه الحال في وحدة الشهود المزعوم، تكون حقيقة حالهم أنهم يبطنون ويخفون الاعتقاد بوحدة الوجود ولا يصرحون به. يقول الشيخ: "وهذا القول والحال للاتحادية الزنادقة من المتأخرين كالبلياني والتلمساني والقونوني ونحوهم الذين يجعلون الحقيقة أنه عين الموجودات وحقيقة الكائنات، وأنه لا وجود لغيره، لا بمعنى أن قيام الأشياء به ووجودها به، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم "أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد:ألا كل شيء ما خلا الله باطل" وكما قيل في قوله: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ}[القصص: ٨٨] فإنهم لو أرادوا ذلك لكان ذلك هو الشهود الصحيح، لكنهم يريدون أنه هو عين الموجودات، فهذا كفر وضلال. ربما تمسك أصحابه بألفاظ متشابهة توجد في كلام بعض المشايخ، كما تمسك النصارى بألفاظ متشابهة تروى عن المسيح، ويرجعون إلى وجد فاسد أو قياس فاسد. فتدبر هذا التقسيم فإنه بيان الصراط المستقيم".

انتهى كلامه رحمه الله

ونقول إنه عندما كلف الشارع المسلمين بالإحسان، قال "أن تعبد الله كأنك تراه" ولم يقل أن تعبد الله وأنت تعلم أنك لا ترى شيئا سواه، لماذا؟ لأن الشهود المستفاد من هذا الحديث، إنما هو شعور بالقلب، مضاف إلى حضور لا يزول للشعور بما سواه سبحانه، فأنت ترى ما حولك، وتدرك انفصال وجوده عن وجود باريك سبحانه، ولكنك تشعر في نفس الوقت شعورا حاضرا بأنه كله من خلق الله وتدبيره، وأنه لا تتحرك قدم عن قدم إلا بأمره، ولا تسقط ورقة إلا بأمره، ولا يقع خير ولا شر إلا هو من خلقه وتدبيره جل شأنه، فيصبح الرجل وقد توكل على خالق الأسباب دون أن ينفي وجودها! وليس أن المرء لا يحصل له الشهود الصحيح حتى يرى العالم من حوله فلا يبصر إلا الله، وينجلي عنه الشعور بجميع ما سواه، فيصبح وقد اعتقد أنه لا موجود بحق إلا الله، وأن جميع ما سواه سراب ووهم! وهذا فارق جوهري بين الإحسان الصوفي السلفي والإحسان الصوفي الفلسفي الفاسد، يجب أن يدركه طلبة العلم، حتى يسلم لهم طريقهم إلى الله تعالى من مكائد الشيطان!

فإن الصوفية وإن كانوا قد اعتنوا بتحقيق الإحسان، الذي هو شطر عظيم من الدين، كما يفهم من حديث جبريل، والتمسوا أسبابه التي أثِرت عن السلف رضي الله عنهم، التابعين وتابعي

التابعين، إلا أنهم جاوزوا الحد الموروث، وأبعدوا في المجاوزة، وتتبعوا أحوال الزاهدين والمنقطعين للعبادة من السائرين في تلك المسالك الموروثة، مما لم يكن فيه إلا تحقيق ما هو منصوص مشروع مما حسنه الشرع وأطلق التكليف به بلا تخصيص أو تقييد، تحريا لما اعتاده بعض أولئك العابدين الزاهدين من السلف من أنواع الذكر المطلق والعبادة في الخلوات، بنوع من الربط السببي البدعي بين ذلك العمل الذي التزموه وبين تلك الأحوال التي رويت عنهم، فجعلوا الكرامات وخوارق العادات دليلا على صحة ما اختاره العابد المنقطع للعبادة صاحب تلك الأحوال لنفسه من العبادات التي داوم عليها، فقيدوها في أوراد لم تثبت ولا تصح عن النبي عليه السلام، وأصبحت تلك الأحوال الظاهرة التي اتخذ الشيطان منها ملعبا فسيحا للتلبيس على القوم، هي الغاية التي يرمي إليها السالك في التصوف، يطلب عن شيخه الأوراد التي أثمرت في صاحب الطريقة من قبلُ، ما يروى عنه من تلك الأحوال، وينتظر أن يقع له نظيرها إذا ترقى في طبقات الطريقة وأوغل فيها ما أوغل! ومن ثم صار ينصب "للطريقة" شيخ يعلمها لطالبيها، ويورثها لمن بعده، على نحو ما تعرفون، مع أن كل ما معه لا يعدو أن يكون تحكما في الشرع بالذوق والرأي. جرب فلان كذا فحصل له كذا، وجرب فلان كذا فحصل له كذا! فيصبح ما جربه مما أثمر معه تلك الحال، مسلكا وطريقة يأخذها الناس طلبا في حصول الحال نفسها لهم! وهذا ليس من توحيد الاتباع في شيء! قال ابن رجب الحنبلي –رحمه الله تعالى: "وإنما ذمَّ أحمدُ وغيره المتكلمين على الوساوس والخطرات من الصوفية حيث كان كلامُهم في ذلك لا يستند إلى دليل شرعيٍّ؛ بل إلى مجرد رأي وذوقٍ."

فهم لما غلب عليهم الجهل بالشريعة والتساهل في طلبها وتعلمها، اجتالتهم الشياطين من جهة تحسين البدع والإغراق فيها، والاستدلال على صحتها لا بشيء إلا بأن فلانا الصالح الزاهد الورع، قد شاهد في المنام ما شاهد، أو جاءه إلهام أو كشف في خلوة من خلواته، أو جاءه النبي عليه السلام في اليقظة أو جاءه الخضر فحدثه بتحسين هذا الورد أو ذاك وبفضله وكذا، إلى غير ذلك مما انقدح زناده فيهم بلا حد ولا قيد، ففروا من شرك العمل الذي يقع فيه من يغفل عن تحقيق الإحسان في عمله، إلى شرك الاتباع الذي يقع فيه من سن في الإسلام شيئا من الأعمال التعبدية لم يأذن فيه النبي عليه السلام، ولم يعلمه أمته! ومن غلوهم في الصالحين، وقعوا فيما زينته لهم شياطين الجن من الشرك الأكبر، فعبدوهم من دون الله تعالى، وصاروا يحسنون دين كل زنديق ماجن لا يتقي الله ظاهرا ولا بطانا، بدعوى أنه من العارفين بالله، الذين ظهرت لهم من الخوارق التي يزعمونها كرامات، كذا وكذا. يقولون إذا سئلوا: هؤلاء لا يجوز تتبع زلاتهم وسقطاتهم! ويزعمون أن لله عادة ماضية في الانتقام من كل من يذمهم لأغلاطهم ومخالفاتهم، أو يتعرض لهم بما يؤذيهم أيا ما كان، لقوله عليه السلام في الحديث القدسي "من آذى لي وليا فقد آذنته بالحرب"! فهم لما قلبوا ميزان الحكم على الناس بالولاية الخاصة لله تعالى، إلى أن يكون هو الأحوال الخارقة للعادة التي تقع أحيانا لبعض الصالحين، وليس نفس الأعمال والأقوال والأفعال التي تعرف عنهم، على أساس أن الأمر متعلق بالباطن لا الظاهر، وليس كل من ظهر

منه التزام الشرع كان صالحا في باطنه، لما وقعوا في ذلك الخُلف، جوزوا أن يكرم الله تعالى ويقرب إليه أناسا حقهم أن يغمسوا في قعر جهنم، إن ماتوا على ما يرونهم عليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله! ولهذا ترى في تصانيف المنتسبين إلى التصوف وطرائقه، من الدفاع عن بعض أولئك الزنادقة الذين عظموهم وشهدوا لهم بالولاية ما يعجب منه كل عاقل! حتى الحلاج الذي قال "أنا الحق" و"سبحاني ما أعظم شأني" و"ما في الجبة إلا الله"، ذاك الزنديق الماجن الذي أفتى بقتله الجنيد فيمن أفتوا بذلك، حتى هذا وجد من القوم من يدفع عنه ويلتمس له المخارج! ومما دفعوا به عنه وعن أمثاله أن قالوا إن حال وحدة الشهود قد ذهبت بعقله فما عاد يدري ما يقول! ويقال لهم فهل يا أعداء أنفسكم، جاء الشرع بما يذهب به عقل العبد الذي هو مناط تكليفه؟؟ هل في شريعة رب العالمين فيما تزعمون، ما يوقر به المخبول ذاهب العقل، بدعوى أن المعرفة بربه قد أذهبت عقله، حتى صار لا يرى فرقا بينه وبين ما يعبد؟؟ الله تعالى علم نبيه دينا لو التزموه حق الالتزام، واستقاموا عليه حق الاستقامة، لصاروا أمة من الحمقى والمخابيل والمجاذيب؟؟ نعوذ بالله من تلك الزندقة!

كان الفضيل ابن عياض رحمه الله، وهو من السلف ومن أحسن المتصوفة حالا، وألصقهم بالسنة، كان يقول لو خيرت بين أن أبعث وأدخل الجنة، وألا أبعث لاخترت ألا أبعث، فقيل له حياء من الله؟ قال نعم. هذا المعنى، أن يستحي العبد من أن يرى نفسه أهلا لأن يدخل الجنة، وأن يود لو لم تلده أمه من كثرة ذنوبه وآثامه، ومن شعوره بما يدخل على نفسه من النفاق، ومن شدة خوفه من ذلك، هذا معنى سلفي لا غبار عليه، وهو مع استحضار القبر والموت وتكرار ذلك مما يعين العبد على التحقق بالإحسان ولا شك، وعلى الترقي في طبقات الولاية الخاصة لله تعالى، ولكن قد رأينا ممن جاؤوا في القرون التالية من غلا في ذلك المعنى وأفرط فيه، حتى قالت رابعة وأمثالها: اللهم إني لا أعبدك طمعا في جنتك ولا خوفا من نارك، وإنما أعبدك محبة لك! أو نحوا من ذلك. وحتى قال قائلهم إنما أعبدك عبادة العاشقين لا عبادة التجار!! فهل يستوي هذا المعنى بالذي ذكرته لكم قبل قليل من كلام الفضيل رحمه الله؟؟ أبدا! الفرق واضح جلي بين من يستحيي ويخجل من أن يتكلم بما يُفهم منه أنه يراه مستحقا للجنة، جعلنا الله وإياكم من أهلها، وبين من يقول لربه لا رغبة لي فيما رغّبت فيه عبادك ولا رهبة لي مما رهبتهم منه، وإنما أعبدك تمحضا في محبتك! هذه زندقة محضة، وكذب على النفس ظاهر جلي! لا يمكن أصلا أن يحمل العبد نفسه على فعل يفعله إلا رغبة في ثمرة إتيانه ورهبة من أثر تركه وتفويته، كما في قوله تعالى ((وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ)) [الأعراف : ٥٦]! خوفا وطمعا! لم يقل محبة، مع أن المحبة هي ثمرة السعي بهاتين الخصلتين في كل عمل، ولهذا عدها أئمة السنة رأس الطائر الذي لا يحلق أبدا إلا بهذين الجناحين!

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في مجموع الفتاوى: "قال بعضهم مَنْ عَبَدَ الله بالحب وحده فهو زنديق، ومَنْ عَبَدَ الله بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن"

ولهذا قال رحمه الله في الاستقامة: "ولهذا يميزون (يعني أئمة السنة) في أهل الخير والزهد والعبادة بين ثابت البناني والفضيل بن عياض ونحوهما، وبين مالك بن دينار وفرقد السبخي وحبيب العجمي وطبقتهم، وكل هؤلاء أهل خيرٍ وفضلٍ ودينٍ، والطبقة الأولى يدخل حديثها في الصحيح" قلت فلم تزل الحال تتردى فيمن بعدهم حتى مال الصوفية إلى الزندقة والخروج عن رسوم الشرع وحدود العقل. وما ذاك إلا لانخرام مصادر التلقي فيهم بدخول الذوق والوساوس والخطرات التي تطرأ على قلب الواحد منهم فيها، فصار أحدهم يأخذ من تلك المصادر الفاسدة ما لا يجوز أخذه إلا من السمع الصحيح، من الكتاب والسنة وعمل الصحابة رضي الله عنهم. فنحن نقول للناس كما قال الأولون من السالكين في مسالك تطهير القلب وتعبيده لربه، خذوا بأنواع العبادات التي تطهر قلوبكم وتقربكم إلى الله تعالى، مما جاء به النبي عليه السلام وعملت به الأمة، فإذا وقع في نفوسكم على أثر ذلك شيء فاعرضوه على الكتاب والسنة، لا تحدثوا به أحدا ولا تأخذوا منه شرعا ولا دينا، فإن الدين قد كمل والشريعة قد تمت، ولا مزيد عليها.

والجنيد رحمه الله، كان من خيرة المتصوفة في القرن الثالث الهجري، كان عالما متفقها، حريصا على تحري السنة، ومما يؤثر عنه قوله "الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول"، وقوله: "من لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث، لا يقتدي به في هذا الأمر (يعني التصوف) لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة" فمن الإساءة إليه أن ينسب إليه وإلى الحسن البصري من قبله، سند الطريقة الشاذلية البدعية كما يسلكه أصحابها في كتبهم. فإنه لو صح أن كان الإتيان بأوراد وأذكار لم تثبت عن النبي عليه السلام، وحمل الناس على تخصيصها بأوقات وأحوال مخصوصة في اليوم والليلة، لو صح أن كان ذلك المسلك في اختراع الطرق والمسالك في تطهير القلب وتصفيته وتحقيق الإحسان، من اقتفاء أثر الرسول عليه السلام، لانفرط زمام الشريعة، ولبطل قوله تعالى ((الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً)) الآية [المائدة : ٣]! قال الْحُسَيْن النوري لبعض طلابه: "من رأيته يدعي مَعَ اللَّه عز وجل حالة تخرجه عَنْ حد علم الشرع: فلا تقربنه ، ومن رأيته يدعي حالة لا يدل عليها دليل، ولا يشهد لها حفظ ظاهر: فاتهمه عَلَى دينه". هذا كلام مسند صحيح عن بعض من يدعي الطرقية نسبة طرقهم المحدثة إليهم، فهل صدقوا في دعواهم اتصال السند بهؤلاء؟ الجواب واضح!

فالذي حصل أن أهل الفقه والفتوى من متأخري الصوفية ومن الطبقة التي قبلهم، أي في القرون التالية للثلاثة المفضلة، دخلت عليهم الشبهة من جهة الإسناد، وإطلاق الحكم بالولاية الخاصة على جميع من فيه، وصولا إلى البصري وغيره من السلف. فتراهم يثبتون سلفية الطريقة بإنزال تلك الأسانيد التي حصلت لهم بتقريرها أو تحسينها، منزلة النص المرفوع إلى الرسول عليه

السلام، من حيث الحجية، ويحتجون بالتلقي بالقبول وكذا، مع أنهم يعترفون بأن الطريقة لم يعرفها الصحابة في القرن الأول، ولا أثر عنهم العمل بها! فكيف يكون عند من جاؤوا بعد قرن الصحابة طريق صحيحة مشروعة إلى الله تعالى مع أنهم لم يؤثر عنهم العمل بها ولا عرفوها؟ هنا يدفع القوم بأن يقولوا: وكيف حكمت أنت بأنهم لم يعرفوها، مع أن الطريقة مسندة إلى بعض تلامذتهم من التابعين وتابعيهم؟ أأنت أعلم من الحسن البصري بما كان عليه الأصحاب رضي الله عنهم؟ أم تراك تطعن في صحة الإسناد؟ ويقال لهم أما صحة الإسناد فلا نسلم بها، وإن صحت فلأهل الحديث نظر في هذا الذي أسنِد وصح سنده، على الرغم من صحة السند، وسلامة رجاله من القوادح في الصدق والعدالة، ينظرون هل يُقبل ويُعمل به أم يقال بشذوذه ونكارته ويرد من جهة المتن! وأما أن الطريقة كما تعرفونها اليوم هي التي تؤثر عن الجنيد ومن قبله عن الحسن كما تزعمون، فليس بصحيح أبدا! فالعهد والأوراد لا يزال وارثوها يزيد بعضهم فيها ما يزيد، وينقص ما ينقص ويعدل ويبدل بالذوق والكشوفات المزعومة، التي تُقبل من صاحبها لا لشيء إلا لأنه من أهل العرفان المزعوم!

وهذه الطريقة المغالطة في الاستدلال هي مدخل الشبهة على كثير من فضلائهم، لأننا في علم الجرح والتعديل، إنما نحكم على الرجال بالظاهر دون الباطن، لأن الباطن لا يطلع عليه إلا الله، والسرائر موكلة إليه. أما أن يتخذ بعض ما في الظاهر، طريقا لتزكية باطن الإنسان والحكم بأنه قد حاز الولاية الخاصة وجاوز القنطرة، ثم مهما وقع منه بعد ذلك فلا ينكر عليه ولا يذم به، فهذا يجعل من أسانيد الطرقيين ضربا من العبث الغارق في الدور القبلي عند التدبر. يقال إن العبادة الفلانية مستحسنة شرعا، والمداومة عليها مستحسنة لأن فلانا قد حسنها ووجد منها في نفسه ما وجد، وهو من العارفين بالله، وله اتصال بالأنبياء وكذا، فنحن نثبتها من هذه الجهة وإن لم تثبت عن النبي عليه السلام ولا عن أصحابه، وحسبنا أن ينتهي سندنا فيها إليه، فإذا قلنا ولكن كيف أثبتم له الولاية الخاصة وزكيتهم باطنه ابتداء، والله قد أوكل علم السرائر لنفسه واختص به، قالوا لأننا رأينا منه كذا وكذا مما يدلنا على أن الطريقة التي حسنها هذه أو العبادة التي علمها أتباعه ومريديه، تثمر فعلا من الولاية الخاصة ما يوجب للإنسان تلك الأحوال التي شوهدت له ورواها عنه الناس، إن استقاموا عليها كاستقامته، وإذن فلابد لها من أصل في الشريعة، علمه من علمه وجهله من جهله! وإذن فالعبادة وثمرتها المدعاة دليل على الولاية الخاصة، والولاية الخاصة دليل على مشروعية العبادة محل النظر، وعلى أن ثمرتها تلك مما يكرم الله به أولياءه! وهذا دور قبلي جلي! والطرقية مغرقون فيه، وهو ما لأجله نقول إنهم فروا من شرك إلى شرك أخطر منه. وهم به يشبهون النصارى في استدلالهم على قديسية القديسين المزعومين عندهم بأن أعمال الروح القدس قد جرت على أيديهم، ويستدلون على عمل الروح القدس بهم بقديسيتهم المزعومة! ونظير ذلك استدلالهم على صدق جميع ما في كتبهم بعمل الروح القدس في كتبتها، وأنها وجهتهم إلى الحق لا محالة، ثم إذا طالبتهم بالدليل على ذلك أخرجوا لك نصا من نصوص تلك الكتب نفسها يتأولونه بما يفيد ذلك!

على أي حال، فلما دخل التصوف الوثني الشرقي على القوم واختلط بعقائدهم، تصوف الهنود البوذيين خاصة، أصبح منتهى الإحسان الذي يرام من التصوف ومن التدرج في طبقاته عندهم، هو حقيقة باطنة مزعومة لا تنكشف إلا للعارفين المنتهين! حقيقة مدعاة ينتهي إليها المتصوفة من كل ملة، وهي غاية السلوك ومنتهى الطريق عندهم جميعا! ما هي الحقيقة؟ أنه لا موجود بحق إلا المعبود، الذي يتصل بهم فعلا فيما يعتقدون، إذا بلغ أحدهم الغاية في الفناء والتخلص من الشعور بكل ما حوله! وإذن فلا يكون الإحسان أنك تعبد الله كأنك تراه، بل أن تعتقد وتقطع بأنك لا ترى فيما يقع عليه بصرك شيئا سواه أصلا، لا محسوس سواه، لأنه لا موجود بحق إلا هو، سبحان الله وتعالى عن تلك الوثنية المحضة علوا كبيرا! فهذا الحديث، على ما عليه ألفاظه، حجة على أصحاب ذلك الغلو الفاحش على الحقيقة، وليس حجة لهم، لأنه عليه السلام قال "كأنك تراه"، فشبه الحال بالحال، إثباتا للافتراق النوعي بينهما، ولو صح مذهبهم لوجب أن يسوي بينهما، لأن الذي يحقق الإحسان عندهم، ينتهي إلى أن يرى الله فعلا في كل مخلوق، فلا يمتاز عنده عابد عن معبود، ولا إله عن إله، ولو سجد للبقرة أو للفأرة أو للبعرة، أعزكم الله، لما شعر إلا بأنه يعبد الله تحقيقا، سبحان الله وتعالى علوا كبيرا!

وللأسف، فلما غلب هذا الشأن القبيح على المتأخرين من الصوفية، وأصبحت الطرقية تهمة، والتصوف شبهة يفر منها طالب العلم ويتنزه عن النسبة إليها، لفداحة ما ينفتح على الناس من أبواب الشرك والزندقة باسم التصوف والسلوك إلى الله، أصبح حظ أهل الحديث والأثر من البحث في تلك العلوم ومن تعاطيها والتحرير والتحقيق فيها، قليلا للغاية، حتى إن الإمام ابن القيم رحمه الله نفسه، لما كان ذا عناية بهذا العلم، وله فيه تصنيف وبحث، رأينا من المنتسبين إلى أهل الحديث في عصرنا هذا، الذين يعدونه إماما لهم في العقيدة والمنهج، رأينا منهم من يقول: دعكم من كتبه التي كتبها في هذا الباب، رحمه الله! فإنه مما كان في طوره الأول حين كان متصوفا، وعامة ما فيه من خير إنما هو تحصيل لحاصل لا يفيدنا بشيء، أو شقشقة بمصطلحات لا نفع تحتها، ومنتهاها عند المتضلعين بها من الصوفية هي ما تعلمون من البدع والقبورية ووحدة الوجود وكذا! وحسبنا في الرقائق والزهد وهذه الأمور ما نمر عليه منثورا في كتب العلماء هنا وهناك! فلما أراد هؤلاء الفرار والسلامة من غائلة البدع الصوفية والشركيات والقبوريات وهذه الأمور، فروا من حيث لا يشعرون من تعلم الإحسان ومن طرق السلف المأثورة في تحقيقه وفي التريض عليه. بل صرنا نسمع من يقول إن قرن التابعين وقع فيهم من الغلو والإفراط في الزهد وتحري الإخلاص وتطهير القلوب وهذه الأمور، ما لا يحسن متابعتهم عليه! يقول هذا الكلام بعض من يتخذون من السلفية ومن اتباع السلف شعارا لهم، والله المستعان.
وهو ما ترتب عليه من الثمرة، أن أصبح أناس منهم لا ينتبهون إلى تنامي الأمراض وحظوظ النفس في بواطنهم، يرى في نفسه الإخلاص لله تعالى وهو من أبعد الناس عنه على التحقيق! ولهذا فلما وقعت تلك الحال المرذولة لأناس تعلموا فيما تعلموه من أصول أهل السنة وجوب الحذر من البدعة وأهلها ووجوب تعظيم جناب العقيدة والتوحيد، أفرطوا في الحط على الناس

بما تلبسوا به من ذلك، وغلوا في تتبع العورات والزلات، حتى رأينا منهم من يسقط جميع علماء العصر بلا استثناء، بدعوى أنهم "مدجنة" مخنثة، قد دجنتهم الأشاعرة وصيرتهم أبواقا لها، يتهمون بذلك حتى طلبة العلم المختصين في نقد البدع الكلامية وتحذير الناس منها ومن أصولها التي يقع فيها كثير من الدعاة المعاصرين من حيث لا يشعرون! فهؤلاء لو أنهم طالت مجالستهم لأهل العلم كما كان حقها، لسمعوا في كلامهم وفيما يشرحون من كتب العلماء ما يحصل به من تطهير القلوب ومراقبة النفس ما يحجزهم، على الأقل، عن الترسل مع أمراض نفوسهم وما فيها من الحسد والحقد على أهل الفضل السابقين إليه على هذا النحو الفاحش! ولكنهم عجلوا على أنفسهم واكتفوا بما لا يكفيهم على الحقيقة، فوقع لهم ما وقع!

اعلموا بارك الله فيكم، أن الإحسان منه قدر واجب لا يسع المسلم تركه أو التفريط فيه، وقدر مستحب مندوب، يزداد به العبد تقربا إلى ربه وتحببا إليه، والدليل على التفاوت بين النوعين، قوله عليه السلام في الحديث القدسي: "إنَّ اللَّهَ قالَ: مَن عادَى لي وَلِيًّا فقَدْ آذَنْتُهُ بالحَرْبِ، وما تَقَرَّبَ إلَيَّ عَبْدِي بشَيءٍ أحَبَّ إلَيَّ ممَّا افْتَرَضْتُ عليه، وما يَزالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحِبَّهُ، فإذا أحْبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذي يَسْمَعُ به، وبَصَرَهُ الَّذي يُبْصِرُ به، ويَدَهُ الَّتي يَبْطِشُ بها، ورِجْلَهُ الَّتي يَمْشِي بها، وإنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، ولَئِنِ اسْتَعاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وما تَرَدَّدْتُ عن شَيءٍ أنا فاعِلُهُ تَرَدُّدِي عن نَفْسِ المُؤْمِنِ؛ يَكْرَهُ المَوْتَ، وأنا أكْرَهُ مَساءَتَهُ." فمن أدى الفرائض وأحسنها، فقد أتى بأعظم ما يحبب الرب في عبده! اسمع، ما يزال يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه. فإذا أراد العبد أن يزداد تحببا إليه سبحانه وتقربا، فعليه بالنوافل وبإحسانها، فإنه حينئذ يبلغ من الولاية الخاصة لله تعالى مبالغ الصديقين، بلغنا الله وإياكم. والحديث دال على أنه لا يحصل الإحسان المقرب للعبد إلى ربه، إلا في الفرائض والنوافل، وهي العبادات المشروعة التي دل الكتاب والسنة على مشروعيتها. وإلا فلا يجتهد العبد في بدعة إلا ازداد عن الله بعدا، كما قال السلف. عن ابن وضاح عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: "اتبعوا آثارنا ولا تبتدعوا; فقد كفيتم" أي كفيتم ما به حصول الإيمان وما به حصول الإسلام وما به حصول الإحسان جميعا، فيما تأخذونه عنا، فلا تحدثوا فيه ما لم نعرفه ولم يكن عليه أمرنا.

وعن ابن وهب عن ابن مسعود أنه قال: "عليكم بالعلم قبل أن يقبض ، وقبضه بذهاب أهله . عليكم بالعلم; فإن أحدكم لا يدري متى يفتقر إلى ما عنده . وستجدون أقواما يزعمون أنهم يدعون إلى كتاب الله وقد نبذوه وراء ظهورهم ، فعليكم بالعلم ، وإياكم والتبدع والتنطع والتعمق ، وعليكم بالعتيق". إياكم والتبدع والتعمق، وهذا ما وقع فيه الصوفية الطرقية تحقيقا في علوم الإحسان وتزكية القلوب. لكن لا يرد أصل العلم السلفي الموروث الذي أفسدوه هم لبطلان ما أدخلوه عليه، فإن الجهل لا يقابل بالجهل، وإنما يقابل بالعلم والحلم!

روى مسلم عن أبي عثمان النهدي عن حنظلة الأسيدي قال: وكان من كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لقيني أبو بكر فقال كيف أنت يا حنظلة؟ قال: قلت: نافق حنظلة !قال: سبحان الله،

ما تقول؟ قال: قلت: نكون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات فنسينا كثيراً. قال أبو بكر :فوالله إنا لنلقى مثل هذا، فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، قلت: نافق حنظلة يا رسول الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " :وما ذاك؟ ".قلت: يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة، حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيراً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " :والذي نفسي بيده؛ إن لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم، وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة ثلاث مرات".

فعندما يقال إن لتحقيق الإحسان طرقا تفصيلية لم يعرفها الصحابة فهذا خرق للاتباع المأمور به قطعا، لأن الذي جاء به الشرع إنما هو طريقة واحدة لا غير، طريقة النبي عليه السلام وأصحابه، ثم الناس بعد ذلك يتفاوتون فيما تثمره تلك الطريقة فيهم، بحسب الطبع والجبلة ونوع التربة القابلة للاستصلاح والاستزراع فيهم! من الناس من يصلحه ويروض نفسه كثرة الذكر المطلق، وكثرة الاستغفار والتسبيح والصلاة على النبي عليه السلام، عامة وقته، يروض نفسه على ذلك وينتظم عليه، ويعمل على استحضار معاني الأذكار واستشعارها بقلبه ما أمكنه ذلك، ومن الناس من ينفعه كثرة التنفل بالصلاة، ومن الناس من يجمع ذلك إلى صيام النوافل المطلقة، ومنهم من يجد رقة في قلبه من كثرة تلاوة القرآن، ويجد إحضار القلب في ذلك أيسر عليه مما سواه، فهذا كله مما أطلق الشارع التعبد به بلا حد ولا قيد، ثم لكل وجهة هو موليها.

هذه هي الطريق، وأما الثمرة، فلله في قلوب عباده شؤون، ولا ننتظر خارقا للعادة أو كرامة من جنس ما يتندر الصوفية بروايته، وإنما حسب امرئ من إصلاح قلبه أن يبلغ أن يعرف كيف يحمل نفسه على الإخلاص والإخبات والإنابة لله تعالى، وعلى مراقبتها في السر والعلانية، وألا يترك للغفلة إلى قلبه مدخلا، ما استطاع إلى ذلك سبيلا! فما أكرم الله عبدا بشيء فوق إكرامه إياه بحسن الاستقامة على دينه، ثبتنا الله وإياكم. هذا كله مما نرد به على الصوفية عندما يقولون: لا يكفيكم ما تسلكونه من إصلاح القلوب على طريقتكم، وإنما عليكم أن تقصدوا شيخا من مشايخ الطرق الصوفية ليأخذ بأيديكم في الطريق إلى الله! ولكن، ومع هذا، فكل ذلك يحتاج صاحبه إلى تحصيل العلم بالقلوب وأحوالها وإصلاح النفوس ومراقبتها، حتى يعلم من أين تؤتى نفسه إذا راودها الشيطان وعاودها، ومن أي مدخل يدخل الهوى الفاسد إليها فتغلقه. يجب أن يتعلم حسن المراقبة وحسن المحاسبة وحسن المعالجة والصبر عليها، والأخذ بأسبابها الشرعية، كعبادات السر وقطع النفس فيها عن كل شاغل أو مزاحم، والخلوات التعبدية المحضة وما شاكل ذلك، على ما كان عليه السلف في ذلك كله لا الخلف. فثمة علم في هذا يحتاج إليه طالب العلم، ومع هذا فأكثر الطلبة يفرطون فيه كما قدمنا. ولهذا التفريط من العواقب الوخيمة ما صرنا نعاني منه اليوم في عصر الإنترنت وشبكات التواصل الاجتماعي أشد ما تكون المعاناة، والله المستعان.

والخلاصة التي نخلص إليها من جميع ما مر، أنا نقول لا تتركوا علما يحتاج إليه المسلمون، وتحتاجون إليه معاشر طلبة العلم، لا تتركوه ليستقل به أهل البدع والأهواء من الصوفية الخرافية، حتى يلبسوا على الناس دينهم من جهة أن أهل السنة السلفيين لا دراية لهم به ولا اهتمام، ولا يتعلمون تهذيب نفوسهم ومجاهدتها كما كان يفعله السلف، لا سيما وقد علمتم أن من المنتسبين إلى السنة وممن كانوا في أول أمرهم يأخذون العقيدة والمنهج عن علمائنا وعن أئمة السنة في هذا العصر، من هؤلاء من كانت تضرب الأهواء وحظوظ النفس والشهوات والكبر في نفوسهم مضرب السرطان في خلايا الجسد، ولم تزل، سلمنا الله وإياكم، لأنهم لم يجدوا من يشخص أحوالهم ويكشف طباعهم وميولهم القلبية في بداية الطلب، فيقول لبعضهم حسبكم من العلم ما يتم به ما لا يسع المسلم الجهل به، ويوجههم بعدُ إلى أنواع العبادات والعمل الذي يغالبون به طباعهم الفاسدة رجاء تقويمها وتهذيبها ما استطاعوا، حتى يكون أحدهم مسلما متحققا بالإحسان، لا لأجل أن يكون طالب علم مؤهل للفتوى والتدريس والتأليف! نحن أصلا ليس فينا معاشر طلبة العلم ولا في علمائنا من يدرس طالبا بغرض أن يجعله مفتيا أو مجتهدا في الشريعة، وانتبهوا لهذا! أنا وأنتم نتعلم العلم الشرعي من أجل أن نصبح عامة يعرفون عقيدتهم ومبادئ الشرعية، ويعرفون طريق العلماء المتخصصين من أهل السنة في شتى أبواب العلم، أو أن نصبح، على أحسن الأحوال، طلبة علم قادرين على دعوة الناس إلى السنة، في منزلة الطاب المتوسط وربما المنتهي في العقيدة خاصة، على تقليد في عامة ما سواها من العلوم! إعداد العالم المجتهد هذا أمر قل أن تجده في مجالس العلماء وطلبة العلم من أهل السنة في هذا الزمان! وهذه قضية يجب أن نعترف بها وأن ندركها، وأن نبينها لمن يحضرون مجالس العلم من إخواننا، لأن بعض الناس يظن إذا حضر لفلان وفلان من العلماء فترة من الزمان، أنه يخرج من تحت يده عالما مجتهدا، مستقلا بالنظر في كل علم أخذ منه حظا في مجالس المشايخ والعلماء! لقب العالم هذا يا إخوان لقب عظيم الشأن بعيد المراس، دع عنك لقب العالم المجتهد! نعم الاجتهاد يتجزأ، وهو الصحيح الذي لا مرية فيه، لكن حتى مع تجزئه، فليس بلوغ مرتبته في الباب الواحد من أبواب العلم، أي علم، بالأمر الذي يستهان به كما درج عليه الخوارج المنتسبون إلى السلفية في عصرنا هذا! تجد أحدهم يعامل العلماء معاملة الأنداد، بل ربما عامل أئمة من أكابر أهل العلم المتبوعين في فنونهم، معاملة الأنداد والأقران عند نقدهم والرد عليهم، وتراه وهذا إن دل على شيء فيدل على سوء أدب ونقص في التربية الشرعية والتهذيب النفسي والقلبي الذي يعرف به كل إنسان قدر نفسه وقدر شيخه، ويعترف به ويرتضيه ولا يستنكف من العمل بمقتضى تلك المعرفة. وخوارج العصر على أي حال لا يتربون على أيدي العلماء، وإنما يتربون على أيدي الحركيين والقادة الحزبيين الذين لا يريدون من تعليم أحدهم العلم إلا أن يصيروه تابعا مطيعا لما تمليه عليه القيادة! فالعلم عندهم كبسولة مضغوطة أو حقنة مركزة نضربها في العضل أو في الوريد، على مضض وعلى غير أهلية ولا استعداد نفسي أو عقلي، ولا على محل قابل أو طبع ملائم، ثم نتصدر للناس على أننا علماء ودعاة ونخرج على الفضائيات لنجيب عن أسئلة المستفتين والله المستعان! لا أنسى أبدا دورة سمعت بها قبل سنوات طويلة، مدتها ثلاثة أيام

إن لم أكن واهما، كان قد أعلن عنها وحيد عبد السلام بالي لقراءة كتاب المغني لابن قدامة، تنتهي بإجازة الطالب فيه، ولا حول ولا قوة إلا بالله! فلو أن هؤلاء المتمشيخة تربوا هم أنفسهم من قبلُ على تعظيم العلم وأهله وإنزال أنفسهم منازلها الصحيحة، ومعرفة حدود الواحد منهم ومكنته وقدرته، لما شاهدنا أمثال تلك المهازل!

فالمطلوب من إخواننا طلبة العلم أن يصبروا على أنفسهم وأن يطيلوا النفس أشد ما تكون الإطالة، وأن يعلموا أن طلب العلم مسيرة حياة كاملة، يفني فيها المرؤ منا عمره ولا يدري ما الذي ينتهي إليه رزقه فيما كتبه الله له! فإن العلم والفهم رزق كالمال والمطعم والمشرب والملبس! وعليهم أن يتهيبوا من كبار المسائل ودقائق العلوم، وأن يعلموا أين ينتهي مد أيديهم في مسائل العلم، كل منهم بحسب حاله، ولا يعجلوا على أنفسهم كما عجل الخوارج السفهاء واستهانوا بالعلم وأهله، فأفرزوا مسوخا شائهة باسم السلفية والدعوة إلى السلف واقتفاء الأثر، يدمى القلب منها ويألم أشد ما يكون الألم! حتى صرنا نرى على اليوتيوب وغيره من وسائل التواصل صبية صغارا لا يجاوز أحدهم العشرين من عمره، ولا يدري كيف يستنجي من خراءته، أعزكم الله، يكفر الأئمة ويطعن على فلان من العلماء بالتجهم وعلان بالتعطيل وعلان بالتفويض، ويعم الكافة من أهل الفضل والعلم من أهل الحديث في عصرنا بتهمة التدجين للأشعرية، ويرى أنه بهذا قد اعتلى ذروة سنام العلم والدين، وأنه أحسن اعتقادا من الإمام فلان والإمام فلان ممن أجمعت الأمة على فضلهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله! هذه العاهات لا يفرزها سوء الترتيب في التعلم الشرعي وحسب، وإنما يفرزها بالأساس افتقار من تصدروا بالتعليم والتدريس بين هؤلاء لمن يربيهم هم من الأصل ومن الابتداء على آداب العالم والمتعلم، ويعرفهم مقادير أنفسهم في مقابل مقدار العلم ومقادير العلماء!

ينبغي أن يعتني طلبة العلم الذين يتعهدون الناس بالتأسيس العلمي والديني، يتدرجون بهم تدرج الربانيين في طبقات العلم، يعلمونهم صغاره قبل كباره، يشرحون الكتب الشرعية على مستوياتها في مختلف العلوم، طبقة بعد طبقة، ينبغي أن يعتني هؤلاء الإخوة والمشايخ وفقهم الله تعالى لكل خير، بمعرفة أحوال من يجالسونهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، فإن هذا من هدي السلف رضي الله عنهم! كانوا لا يعطون العلم لكل أحد! ويتحرون فيمن يقربونه إليهم من طلبتهم أن يعرفوا ديانته ومدخله ومخرجه ومن يصاحب ومن يؤاكل، وعند من ينزل إذا نزل وكيف حاله من العبادة ومن النسك! لكن من أعظم آفات هذا الزمان الذي نحن فيه، وما عمت به البلوى، أن أصبح العلم كلأً مستباحا لكل أحد! كل من عنده هاتف ذكي وشريحة إنترنت، يقدر على سماع من يشاء من العلماء وطلبتهم، في أيما باب من الأبواب وفي أي علم من العلوم، وأن ينزل على هاتفه بكبسة زر كتبا كان العلماء والطلبة السابقون تنقطع أنفاسهم وأكبادهم طلبا فيها! فلما صار العلم سهلا رخيصا مبذولا لكل أحد، هان أمره جدا على أصحاب الأهواء والقلوب المريضة، وأصبح التتلمذ على الكتب بلا شيخ ولا موجه هو الغالب وهو الأصل في كثير من المتصدرين للدعوة باسم السلفية في هذا الزمان!

كثيرا ما يأتيني من يسألني من رواد صفحة إقناع، يقول يا شيخ أريد منهجا شرعيا أتدرج به في أبواب العقيدة، بداية من كتب المبتدئين ووصولا إلى كتب المنتهين والمتخصصين، فلا أجد إلا أن أهمله ولا أجيب سؤاله! لماذا؟ لسببين في الحقيقة، لأني لست أرى نفسي أهلا لأن يسألني الناس هذا السؤال، وإنما يرجع فيه إلى العلماء الكبار، وثانيا وهو الأهم هنا، لأني لا أدري من أنت أيها السائل! لا أدري ما حالك! هل تريدني أن أدلك على كتب العلم لتقرأها قراءة صُحُفي لا شيخ له ولا موجه، ثم أجدني بعد سنوات قد تسببت في صناعة مسخ جديد من تلك النابتة الممسوخة المشوهة التي ملأت علينا فضاء الإنترنت في هذا الزمان، وتصدرت في الدعوة بحماقتها وخفة عقلها وفساد معدنها وطبعها من حيث لا نشعر ولا نحتسب؟؟ ما أدراني هل أنت أهل أم لا؟ ما أدراني هل أنت رقيق القلب أم غليظه؟ ما أدراني هل أنت صاحب ورع وديانة وإخلاص أم لا؟ ما أدراني هل طبعك العقلي والنفسي يتسع لدقائق العلوم وكبار المسائل، ولمراعاة أسباب الخلاف بين الناس أم لا؟ ما أدراني هل أنت ممن سلم صدره للعلماء من مشيخة العصر من أهل الحديث، أم هو ممن يحقد عليهم ويحسدهم على ما امتن الله عليهم به؟ لا أعرفك ولا أدري ما حالك حتى أقدمك أو أؤخرك، إن كنت أنا نفسي أهلا من الأساس لأن أقدم وأؤخر!

ينبغي أن يعتني إخواننا وفقهم الله تعالى ما استطاعوا، بالتفريق بين المجالس التي يراد منها إعداد الداعية المتصدر للدعوة والتعليم، والمجالس التي يراد منها تعليم عامة المسلمين ما به تبرأ ذمتهم من العلم الواجب على الأعيان. أنا قلتها من قبل وأكررها الآن، لا أحل ولا أجيز لمن لم يطلب العلم على شيخ من المشايخ في العقيدة، ولم يصل معه إلى مرتبة المتوسط أو المنتهي، أن يتعرض للمادة التي أنشرها على قناة إقناع فيما يتعلق بنقد المتفلسفة أدعياء السلفية، ونقد المذاهب الكلامية، وشرح الجوهرة والتعليق على كتب شيخ الإسلام وما شاكل ذلك! لا أقل من أن يكون الطاب متوسطا مقاربا من الانتهاء، لا سيما في دراسة كتب شيخ الإسلام، حتى لا يتعذر عليه هضم كثير من المصطلحات التي أستعملها في تلك المواد! لكن للأسف أكثر من يتابعون القناة وتلك السلاسل لم يبلغوا ذلك المبلغ ولا اقتربوا منه، وهو ما تعكسه أسئلتهم التي تأتيني على الخاص في صفحة إقناع على الفيس! ومع هذا يعرضون أنفسهم للجدال والخوض في تلك المضايق التي زلت فيها أقدام الأكابر، وكأن دقائق ذلك الباب مما يسأل عنه الناس في قبورهم أو مما لا تزول قدما أحدهم يوم القيامة حتى يسأل عما أبلاه في المخاصمة عليها، وإلى الله المشتكى! يا أخي ما الذي أعجلك على نفسك حتى طلبت الخوض في ذلك والتصدر فيه، وصرت تأخذ في كتب ومحاضرات لا تعقل كثيرا مما فيها؟؟ ألا تتقي الله في نفسك؟؟ دع هذا الباب إلى ما تحسن وما تقدر على تصوره وضبطه! دعه بالكلية! خذ من باب الأسماء والصفات والأفعال الإلهية الجمل التي تليق بحالك، ولا تخض في تفصيل لا تعقله، ولست مكلفا بالخوض فيه! هنا ينتفض الغر الحدادي ويقول: لست مكلفا؟؟ صفات الله لست مكلفا بتعلمها وإتقانها؟؟ ويحك! أتريدنا أن نتهاون في العقيدة، عقيدة السلف، نتعلم الحق المفصل فيما ضلت فيه الجهمية والفرق الكلامية وزاغت؟؟ لا والله يا أخي لا أريدك أن تتهاون في العقيدة! ولكن العقيدة مصطلح فني واسع، يدخل تحته من المسائل ما لا يكاد

ينحصر عند العلماء! وليس كل ذلك على قدر واحد في الوضوح والخفاء من حيث المستند والدليل الشرعي الذي ينبني عليه عند أهل العلم، وهذه مسألة لا تعيها تلك النابتة ولا تدركها لأجنبيتهم عن العلم وأهله! مسائل العقيدة فيها قضايا أمات وأصول رواسخ، من خالف فيها وهو يعلم أدلة إثباتها السمعية عند أهل السنة بلا اشتباه ولا تأويل مستساغ (ومستساغ عند العلماء هنا بمعنى أنه يتصور من جهة اللغة، وليس أن أهل السنة يستسيغونه من حيث هو محل نزاع بين الناس، وانتبه)، هذا قد يحكم بكفره أو بفسقه! ومسائل دونها في الجلاء السمعي، فتكون إجماعا بين العلماء، لكن يتصور في العامي أن يجهل بأدلتها، فلا يضره ذلك إن شاء الله تعالى!

رأيت من قريب بحثا نشره سفيه من سفهاء الحدادية يتهم فيه الشيخ ربيع وفقه الله وشفاه بالتجهم واتباع الهوى، لماذا؟ لأنه قال لا نقول إن الله في مكان، لأن الله منزه عنه! فجلده صاحب المقال وعامله معاملة من ينفي عن الله تعالى العلو الذاتي والجهة، مع أنه قطعا ليس هذا له بمذهب حفظه الله، ولا هو مما يقتضيه كلامه في مسألة المكان هذه! العلماء من الحفاظ وأهل الحديث منهم من يستعمل لفظة المكان وهو يقصد بها الأمكنة المخلوقة، فإذا منع من إطلاق ذلك اللفظ في حق الله تعالى، توجه ذهنه إلى هذا المعنى، أن الله تعالى إن قلنا هو "في مكان" لزم أن نثبت له من خلقه ما يحيط به سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا، خلافا لما إذا قلنا في العلو أو جهة العلو. فهل الشيخ حفظه الله قال هذا الكلام الذي قاله لأنه يوجب ألا يكون المكان والجهة إلا شيئين وجوديين حادثين، لأنهما أعراض تقوم في الأجسام عنده؟ أبدا! بل هو ممن ينكرون ذلك على أصحابه والقائلين به! فطالب العلم المؤصل على منهج العلماء وطريقتهم، يفرق بين مسألة إثبات صفة العلو الذاتي لله تعالى ومسألة حكم استعمال لفظة المكان عند الإخبار عن الله تعالى! فإن المكان إنما جاء في بعض الآثار الإخبار به عن الله تعالى، وليس هو من تقرير صفة إضافية زائدة على معنى العلو فوق العرش، وانتبه! بل إن ما صح من النصوص التي يتعلق بها هؤلاء فيما استعمل فيه لفظ "المكان" في حق الله تعالى يظهر من جمع طرقها أن المقصود بالمكان فيها ليس مكان الذات الإلهية أصلا، ليس العلو الذاتي الذي نثبته لله تعالى من نصوص أخرى في غاية الصراحة، كما في حديث الإسراء الذي احتج بلفظ ضعيف من ألفاظه وهو قوله "حتى أتى إلى الجبار وهو مكانه"، مع أن لفظ البخاري لنفس هذا الحديث فيه "فعلا به إلى الجبار، فقال وهو مكانه"، أي النبي عليه السلام، وليس كما غلط شَريك ابن عبد الله في اللفظِ الذي احتج به! ومن الروايات التي استند إليها قوله في الحديث القدسي الذي في سنده مقال، وساقه الرجل محتجا به "وعزتي وجلالي وارتفاع مكاني"، مع أن موضع الشاهد والاحتجاج ضعيف قال الألباني فيها بعدما صحح أصل الحديث: هي زيادة معلومة من تخاليط ابن لهيعة! فهل أهل الحديث الآن صاروا يثبتون الصفات من الضعيف والشاذ؟؟ العجيب أن نفس هذا السفيه الذي كتب المقال المذكور في النكير على الشيخ، قال فيما قال إن لأهل السنة في "إثبات المكان" كما عبر، قولين! فمنهم من أثبته وصرح بأنه هو العلو فوق العرش (وأنا لا أدري إيش أثبته هذه! أين من أهل السنة والحديث من عده صفة ثبوتية على ما تسلكون؟)، يقول ومنهم من توقف في اللفظ وقال لا ينفي ولا يثبت حتى يستفصل عن المعنى، والصواب أن هذا هو

مسلك أهل السنة قاطبة! ثم نقول هذا الذي قال لا نثبت ولا ننفي حتى نستفصل، هذا على أصولك يكون "مثبتا الصفة" لله تعالى، أم متوقفا فيها؟؟ ثم بعد ما نستفصل، ونجد أن النافي هذا إنما يريد بنفيه، معنى المكان المخلوق الذي لا يجوز إثباته لله تعالى قولا واحدا، وإلا فهو يوافقنا على إثبات العلو الذاتي لربه فوق عرشه، هذا كيف يكون حكمكم عليه؟ نخرجه من أهل السنة لأنه لم يقل نتوقف فلا نثبت ولا ننفي، وإنما قال إن رب العالمين "ينزه عن أن يكون في مكان"؟؟ لقد كتب ذلك الغوي السفيه عبارة في بحثه ذاك، هي من جنس ما قال الله فيه ((ولتعرفنهم في لحن القول)) فهي تكشف ما في قلبه من الحسد والنقمة على ذلك العالم الكبير حفظه الله وشفاه، إذ كتب يقول: "ليت هذا الرجل الذي جعل اليوم إماما للناس جلس وتعلم العقيدة من جديد" انظر!! قرأت هذه العبارة، وقوله في موضع لاحق: "قد كذّب إمام الإحداث (يعني الشيخ) هذه الرواية لتجهمه وهواه" فشعرت وكأن كوة قد انفتحت في صدره فكشفت لي عن خبيئة نفسه!! الرجل واضح أنه داعشي محترق، من جملة الدواعش أتباع الخليفي (وهو يحيل على كلامه في موضع من المقال)، ممن طابت لهم الطريقة الخليفية وأصابت هوى في نفوسهم، فنشر هذا المقال للتشفي في عالم قد أبلى أحسن البلاء في بيان سفاهتهم وخارجيتهم وتحذير المسلمين منهم، ولا عجب! لفظ المكان من علماء أهل السنة من أنكره بلا استفصال أصلا لأنه مشعر بالمكان الوجودي، كما وقع نظير ذلك للإمام الطحاوي في لفظة الجهة، في قوله "لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات"! بل إن الإمام الحميدي رحمه الله قال في الجمع بين الصحيحين معلقا على لفظ "وهو مكانه": "والمكان لا يضاف إلى الله سبحانه وتعالى"! نفس كلام الشيخ ربيع! وأزيدك بيتا فأقول إن الإمام السِّجزي الذي هو أيضا حجة عندكم قال في رسالته إلى أهل زبيد: "والله سبحانه فوق ذلك (يعني العرش) حيث لا مكان ولا حد"! فهل تجهم هؤلاء بذلك، أو احتاجوا لأن يتعلموا العقيدة من جديد كما رمى به الشيخ ربيع؟؟ نعوذ بالله مما في تلك القلوب! والقصد أن تلك الثلة من خوارج العلم لو أنهم تربوا بتربية سلفية صحيحة، في أعمال القلوب وفي مراقبتها ومعالجتها، وتعلموا كيف ينزلون العلماء منازلهم التي أنزلهم الله إياها، وكيف يفرقون بين دقيق العلم وجليله، وكيف ينزلون المسائل العلمية منازلها الصحيحة عند أهل الشأن بلا إفراط ولا تفريط، ما سلكوا تلك المسالك العوجاء الشوهاء المخزية مع علماء المسلمين! لكن قد بلينا في هذا الزمان للأسف بنابتة سوء قد أنزلت جميع مسائل الإلهيات منزلة واحدة، وجعلت أول واجبات المكلفين أن يتعلموا ألفاظا وصفات وأفعالا ومسائل دقيقة ربما مات كثير من الصحابة رضي الله عنهم الذين أثنى الله عليهم في القرآن، ولم يسمعوا ببعضها أصلا، وإن كانت مما أثبته بعض الأئمة في كتبهم! فهم يحملون التكليف بالمعرفة بأنه لا إله إلا الله، التي هي أول واجبات المكلفين عند أهل السنة، كما في قوله عليه السلام "فأعلمهم أنه لا إله إلا الله"، يمحلونه على جمع الصفات الذاتية والفعلية من كتب السلف الأقدمين، التي إنما كتب أكثرها في محاجة الجهمية بالأساس وبيان سعة مخالفتهم للكتاب والسنة وشذوذهم عما عليه علماء أهل الحديث من رواية تلك المعاني وتجويز إثباتها للرب جل شأنه بخبر الواحد، مع أنهم لا يجدون أكثر ذلك التفصيل في كتب أثرية أخرى صنفت لتعليم العوام دينهم، مما صنف في نفس القرن أو قبله في بيان السنة وأصولها!

وهذا المسلك التقميشي الأعمى لم يتكلفه أحد من المسلمين قبلهم! فهي بدعة منهجية يقابلون بها بدعة الجهمية فيما زعموه هم أول واجبات المكلفين! أي أن أول واجبات المكلفين عندهم هو الإفراط في إثبات الصفات الإلهية والإغراب ومجاوزة الحد الذي ورثه أهل الحديث عبر القرون عن سلف الأمة، فيما يقابلون به إيجاب الجهمية على الناس أن ينظروا في وجود الباري وفيما يجوز له من المعاني بناء على تلك البراهين اليونانية! وهذا من مقابلة البدعة بالبدعة لا بالسنة على التحقيق! وهم لم يصرحوا بأن هذا ما يعدونه أول واجبات المكلفين وإنما هو لازم مسلكهم ولسان حالهم! ولا عجب! فعندما يرى الطالب أنه قد استغنى عن الشيوخ والعلماء وطلبة العلم، ولم يعد يفتقر إلى من يوجهه في التعامل مع كتب الأئمة والعلماء الأقدمين، لمرض عميق الغور في نفسه لم يجد من ينبهه إليه ولا من يلجمه عن الخوض في تلك الأبواب الدقيقة مراعاة لحاله وطبعه وعقله، فإننا نرى أمثال تلك البواقع والطامات، في الأخذ من كتب ما كان لأمثالهم أن يعرّضوا لها أصلا! فوالله يا إخوان إننا لنحتاج، لا سيما في هذا الزمان، إلى أن نربي أنفسنا وطلبتنا على كثير من أدب النفس وفقه القلوب، وأن نديم ونجدد النظر في بواعثنا ونياتنا وميولنا الباطنة، في كل ما نكتب وما نقول، وما نأخذ وما نعطي من العلم، إن أردنا ألا ندخل في أول ثلاثة تسعر بهم النار يوم القيامة، سلمنا الله وإياكم، وإن أردنا أن نكون ممن قال الله فيهم ((إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ)) الآية [فاطر : ٢٨]! نحتاج إلى تحقيق معنى الفناء السلفي الذي تقدم تحرير الكلام عليه! ثم من كان ولابد قائما بتدريس العلم الشرعي لمن يريدون التخصص أو يطمعون في الاشتغال بالدعوة إلى السنة وتعليمها للناس، يريدون الانقطاع لذلك حسبة لله، فأوصيه بأن يجعل مجلسه هذا مجلسا خاصا لا ينشره على شبكات الإنترنت، وأن يشترط فيمن يحضرونه شروطا صارمة، وأن يصفي من يأتونه للحضور بامتحانهم والتعرف عليهم بأعيانهم، والسؤال عنهم حيث يعيشون إن استطاع، كما يفتش أحدنا فيمن جاءه يخطب ابنته، فإن العلم أعز علينا من بناتنا وأولادنا وجميع أهلينا! لا تضعوه في أفواه الكلاب، ولا تعطوه لقوم يتخذونه ساحة لمعاداة أهله بعد مزاحمتهم فيه بغير وجه حق! ولعله يستعين أحدكم على ذلك المطلب التربوي الضروري بإعداد ملفات عن طلبته الذين يصفَون له بعد ذلك، ليتابع تطورهم العلمي واستيعابهم وقدرتهم على التحصيل وحسن الفهم، على غرار التعليم الشرعي النظامي في جامعات المسلمين! ولا مانع من أن يستعين في ذلك بطبيب نفسي مسلم مستقيم على السنة، ليعينه في اختبار قدراتهم العقلية وميولهم النفسية! ثم عليه أن يتابع معهم أحوالهم في العبادة وفي العمل بما يتعلم ما استطاع، وأن يعلمهم التحقيق في بواطن نفوسهم وفي نياتهم وتجديد إسلامهم مرة بعد مرة كما كان يصنع علماؤنا وأئمتنا رحمهم الله تعالى. لابد من التخلية قبل التحلية، مهما طال الأمد بذلك! فالعلم ليس صحيفة تُقرأ على يدي أحدنا، ثم ينقلب قارئها ولا نبالي ما يصنع بها بعد! وإنما هو أمانة في الأخذ وفي النقل، أمانة في الوراثة وفي التوريث، يحمله من كل خلف عدوله، ولا يبذل للسفلة والمرضى من الناس، سلمنا الله وإياكم من التفريط في حق الدين علينا وفي حق العلم على حملته، إنه سبحانه ولي ذلك والقادر عليه، والحمد لله أولا وآخرا.